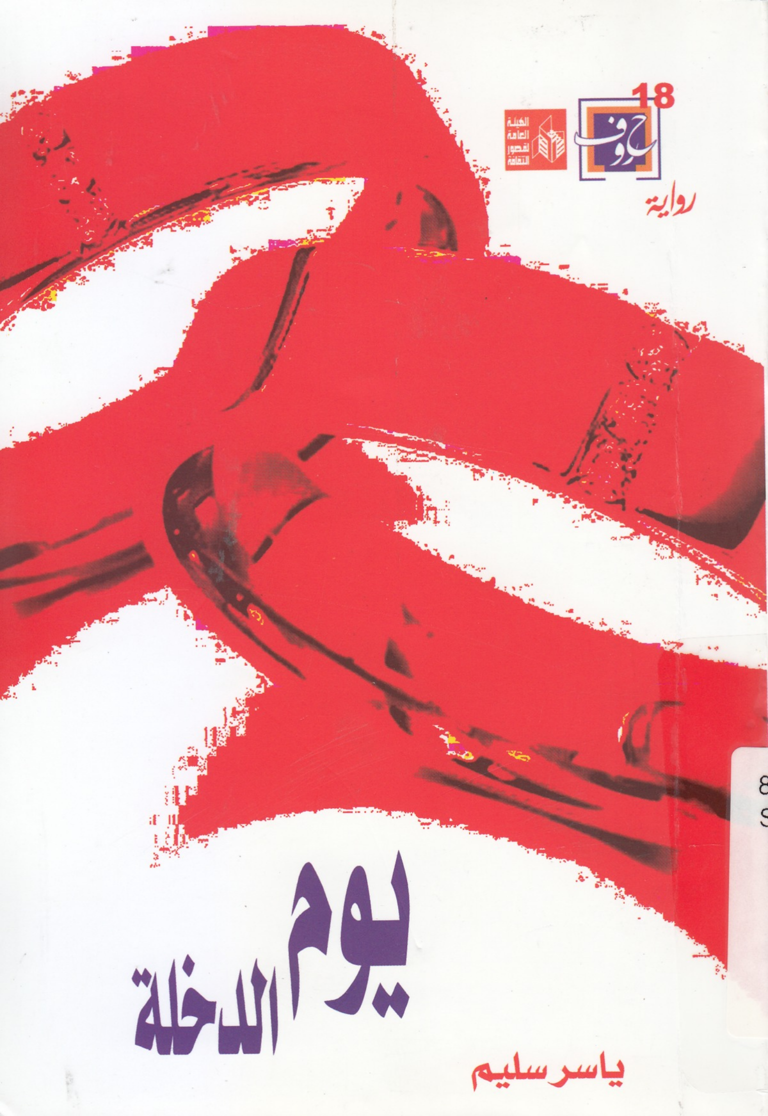

18
حروف
الهيئة العامة لقصور الثقافة
رواية
يوم الدخلة
ياسر سليم

يوم «الدُخلة»

رواية

ياسر سليم



سلسلة
حـــروف
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• يوم "الدخلة"
• ياسر سليم
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: محمد منصور
• رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٠١٣٥
• الترقيم الدولى: 978-977-718-537 0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين
سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)

• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

18

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية
لمبدعى مصر المتحققين

يوم «الدُخْلة»

3

(١)

نعم إنه نفس المكان، تماماً نفسه، ذات البقعة فى ميدان التحرير التى كان يمر بها -على دراجته- العجوز منذ ربع قرن هاتفاً ضد الرئيس هتافات تشى بأنه مجنون.

عندما اكتشفت أننى أقف فوقها تماماً، يوم الجمعة الحادى عشر من فبراير من عام ٢٠١١، نويت أن أهتف بهتاف العجوز الذى يرن فى أذنى ويتعالى صداه الآن عابراً ربع قرن من السنين، وحاولت عبور المنطقة المحايدة التى سقطت فيها منذ بضع سنوات، حاولت أن أجمع شتات حماسى القديم وحبى الذابل لوطنى، منددا به ومدندناً بها بينى وبين نفسى لأجرب طاقتى القديمة المعطلة عن الهتاف، ولم تفلح كل تلك الثورة البهية، هذه الملحمة العظيمة المشتعلة على مدى ١٨ يوماً فى أن تفك عقدة أحبالى الصوتية، وقلت إننى

سأجرب هذا الهتاف قبل أن أنطلق بالغناء بها وسط دائرة الثوار من أصدقاء ابني :

"قول ولا تخش القول قول . . الرئيس هو المخبول"

ثم سأقول لابني الغالي الذى لم يعد يراني سوى بعين واحدة ، "إن أغنيتى تلك يا بني هي الباقية فى ذاكرتى منذ ربع قرن ، لم أنسها وادخرتها ليوم مثل هذا" :

"قول ولا تخش القول قول . . الرئيس هو المخبول"

وكان -قديمًا- شيخ فى الستين من عمره يهتف بها مزلزلاً أنفسنا المترعة بالخوف ، كأنما جاء من بلاد لا تعرف الجبن ، ثم يمضى بدراجته مبتعداً عن أنظار راكبى الأتوبيس الذى يلوون أعناقهم ناحيته ، مبدين امتعاضًا زائفًا .

كل صباح ، كنت أراه فى ميدان التحرير ، فى طريقى إلى دار النشر التى عملت بها مترجمًا منتصف الثمانينيات بعد فصلى من عملى كمعيد بالجامعة ، وأنا أركب الأتوبيس المتهالك الذى يزحف متثاقلاً مكدسًا بالبشر كريهى الرائحة ، أظل أتابع العجوز حتى يغرق فى الزحام كشهاب فى ليل لوحة عشوائية جامدة كئيبة ، خلفيتها جامعة الدول العربية ثم المتحف المصرى ، ثم يمر العجوز أمام الأتوبيس ليعبر الناحية الأخرى ، لتظهر خلفيات أخرى فى اللوحة المقبضة ، حيث مسجد عمر مكرم الجنائزى ، ثم وزارة الخارجية ، وبينهما تلوح من بعيد السفارة الأمريكية .

كل يوم، فى نفس التوقيت تقريباً، يمر أمام ناظرى مثل كائن أسطورى، بلا رائحة جسد تنضح بالعرق، وبلا فم يفوح برائحة الجوع، ضجيجه المدوى الذى يشق صمت الميدان، يظل يطن فى أذنى لساعات حتى أنهار مكدوداً على سريرى الحديدى الصدىء فى الشقة المفروشة فى منطقة "أبو أتاتة" الصاخبة بالفوضى والمخدرات والبلطجية، وروائح الأكلات الشعبية المنطلقة من الشبابيك المفتوحة على بعضها، واختلاط طشة الملوخية مع شهقة امرأة يعابثها زوجها، وسط صراخ رجل مصاب بالبله المغولى، ونباح كلب عقور محبوس أعلى البيت، ودعاء أم لابنتها العاقة.

أسمع طقطقة باب الشقة و"منعم" يدخل مكفهر الملامح، يخلع ملابسه فتمتلئ الغرفة الضيقة برائحة عرقه التى اختلطت بروائح آخرين، ثم يضع على المنضدة الخشبية الصغيرة ساعته واشتراك الأتوبيس، بجوار كارنيه نادى الصيد الذى يعمل فيه محاسباً، ثم يزفر عندما يجد الطعام غير مطهى جيداً كالعادة، وكأنما قد فوجئ بما هو معتاد، وهو الذى يقول لى: البلد دى ما بتتغيرش.

كان "منعم" يعتمد علينا أنا ومنيب -اللذين نقاسمه غرفتنا ذات المترين المربعين- فى تحضير الطعام له، ولو كان "منيب" هنا لكتم غيظه ريثما يدخل "منعم" الحمام، ثم انفجر صارخًا فى وجهى:

– هو فاكر انه متجوزنا؟

يعود "منعم" من الحمام ووجهه يقطر بماء الوضوء، فأسأله: يعنى ممكن تكون الزحمة زادت شوية؟

يرد : أبداً ، كل شيء زى ما هو من خمس سنين ، يمكن الكبارى بس هى اللى بتغير ملامح المكان ، وبعد خمستاشر سنة ربنا يحيينا ، أراهنك هتكون نفس كل حاجة زى ما هى .

أسرح محملقًا فيه ، ينقبض قلبى ، هل سيحل علينا عام ٢٠٠٠ ليتحقق قول "منعم" ، كل شيء كما هو ؟

أحاول أن أنام نوم القيلولة ، فيبادرنى "منعم" :

- منيب فى الشغل ؟

أهز رأسى علامة الإيجاب ، ثم أستيقظ على نداء "منعم" على الحاج "على" صاحب البيت ، ليسلمه إيجار الشهر مبكراً قبل موعده بأيام ، أندهش فينظر لى مبتسماً :

- أصل باعمل حكاية الإيجار دى حجة علشان أفكره بخدمة كنت كلمته عليها ، خدمة يعملها لى باعتباره عضو فى أمانة الحزب الوطنى فى بولاق ، وعلاقاته كويسة مع قيادات المحافظة ، بصراحة عايز أشتغل محاسب فى المحافظة ، أو أى شغلانة حكومية كبيرة ومحترمة ، خلاص قرفت من القطاع الخاص وبلاويه .

تململت فى فراشى ، ولفت نظرى كارنيه غريب بين كارنيهات "منعم" المنثورة بلانظام على المنضدة الخشبية المتشققة بجوار سريرنا ، ودفعنى فضولى لأن أمد يدى وألتقطه ونظرت مندهشاً ثم انفجرت ضاحكًا :

- كارنيه الحزب الوطنى يا"منعم" ؟

غمغم فى ضيق :

- الحاج "على" نصحنى باستخراج كارنيه عضوية الحزب كإجراء شكلى علشان يزكينى للوظيفة كعضو فى الحزب.

قلت بصوت تقطعه قهقهتى:

- طب وأخوة الجماعة الإسلامية عارفين يا أخ "منعم"؟ طب وحبايبك فى أمن الدولة، هتعدى عليهم حركة الاختراق الخطيرة دى؟

قال وقد بدا عليه غضب بالغ:

- قلت لك ده إجراء شكلى، مش أنا اللى أتخلى عن عقيدتى علشان وظيفة، وبعدين أمن الدولة مالهاش دعوة، أنا ماليش ملف عندهم.

ثم اقترب "منعم" منى كثيراً وقال بصوت بائس وكأنه يودع الدنيا:

- بص فى عينيا، الاصفرار زاد؟

قلت بإشفاق اعتيادى من كثرة تكراره:

- ياعم يا موهوم، انت زى الفل، لا التهاب كبدى وبائى ولا يحزنون.

قال منكسراً:

- لا، لا، أنا حاسس بنفسى، أنا تعبان، باحس بإرهاق من أقل مجهود.

ثم أخرج من حقيبته كيسًا أبيض شفافًا بداخله كائن غريب يشبه السحلية، فزعت منه، ثم أدركت أنه محنط على ما يبدو،

وجاء "منعم" بطبق ويد مصحنة، ووضع الكائن وأخذ يدق رأسه.

قلت مندهشاً:

- بتعمل إيه؟

قال:

- باطحن "السقنقور"؟

قلت ضاحكاً بسخرية:

- وما "السقنقور"؟

قال جاداًّ:

- كائن بحرى مفيد لصحة الكبد، نصحنى به صديق عزيز.

استطردت ساخراً:

- يا موهوم.

ثم جاء بكوب به ماء مغلى، ووضع فيه مسحوق السقنقور، وقلّبه حتى بدا أنه ذاب، ثم أخذ يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وأنا أكاد أفرغ ما فى بطنى.

في هذه الليلة، خشيت أن أبيت فى الشقة، مخافة أن يموت "منعم" بعدما رأيته بأم عينى وملامح وجهه تتقلص وتتلون، ثم ازداد وجهه اصفراراً، واستلقى بعدها فجأة على سريره، وتمدد بلا صوت، وظننته يخرج روحه بهدوء حتى ارتفع شخيره فاطمأننت، وارتديت ملابسى وخرجت.

فى غرفته التى استضافنى بها صديقى الذى يدرس الطب بالمدينة الجامعية التابعة لجامعة القاهرة، قررت بعد تردد أن أسأله عن

السقنقور فقلب فى كتاب عن الأحياء البحرية ثم قال :

– ده كائن بحرى يقال إنه له تأثير على تنشيط القدرة الجنسية للرجال.

سألته مفزوعاً :

– طب والكبد ؟

قال :

– مالوش علاقة.

سرحت مهموماً أفكر فى مصير "منيب" الراقد الآن مهدوداً بعد يوم عمل طويل، لا يستيقظ بسهولة عادة، ثم تمتمت شاكراً الله أنى لست موجوداً الليلة بالغرفة.

(٢)

تلك اللعوب التى تركتها منذ ١٨ يومًا ممددة على سريرى فى شقتى بمدينة "الشروق"، استدعت ما كنت قد خبأته فى تجويف ذاكرتى، عندما قابلتها ليلة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ :

السقنقور و"منعم" وتلك الإثارة التى بثتها فى عروقى، عندما شممت رائحة عرق حريمى مختلف ومختلط بعطر نفاذ ردىء، مثل ذلك العطر الذى كنت أشمّه قديمًا، والإثارة التى تسرى فى بدنى حينما كنت أندس بين الأجساد فى الأتوبيس.

تدافعت كتل الذكريات على مخيلتى فى هذه الليلة، ليلة ٢٥ يناير، حينما اقتربت منى ونحن فى سيارتى على كوبرى الدائرى، وقالت :

– استنى أشيل لك شعر مِناخيرك اللى طالع، إيه ده، كل ده شعر ؟

قالتها بشقاوة وهى تسحب خيطًا صغيراً من فستانها، وبرمتها بطريقة جعلتها مثل حرف T في الإنجليزية، ثم مالت عليّ متفادية ذراع الفرامل اليدوى فى سيارتى، تختلط أنفاسها المثيرة بأنفاسى الساخنة، لتلتقط شعيرات أنفى وأنا أفتعل الصراخ، بطريقة دفعتها للقول وهى تغمز بعينها بميوعة:

- الآهة دى مش بتتقال كده ولا هنا.

قلت:

- أمال فين وإمتى؟

قالت بنبرة ذات مغزى رقيع:

- مش هنا وخلاص.

قلت بأسى:

- يا حسرة عليّ، خلاص بقيت كُهنة، إحنا سيبنا الحاجات دى لعيالنا.

قالت بسخرية:

- يا حرام، ليه كده؟

- أصلى داخل على الخمسين، يعنى عمرى الافتراضى انتهى.

ثم أردفت وأنا أميل عليها متودداً:

- ماعندكيش ليّ واحدة لوْنة ومقلوظة وحبوبة وحلوة ودمها خفيف وصغنونة، ترجع لى شبابى.

- موجودة بس فى الحلال.

- وهو حد قال غير كده.

- موافقة.

داعبتها مازحًا:

- موافقة ليه؟ وانتى مالك يا "فاتن"؟ أنا باقول لك تشوفى لى واحدة بالمواصفات دى.

غضبت هي فقلت لها:

- باهزر معاكى يا مزة، هو أنا أطول واحدة فى جمالك ولا فى شقاوتك، ده انتى هترجعيني ابن عشرين سنة.

استدركت وكأنما نسيت:

- طب ومراتك، هتعرّفها؟

- لا طبعًا، هاتقلب حياتنا جحيم، واحنا عايزين نستمتع.

سرحتُ، وتأملتها مليًّا: البنت جميلة وراغبة ودافئة، وتريد الستر سعيًا إليه بوسائل أنثى ساذجة، لا يهم، أنا أريد منها المتعة وهى تريد النفقة، بعد أن أدركت أنه لا أحد سيقبل على الزواج بها، وهى الفقيرة المعدمة، بلا وظيفة ولا أهل ذوى مال أو منعة، وأحد المحسنين قام بدفع تكاليف عملية استئصال رحم لها، عندما اكتشفت أنها مصابة بسرطان الرحم، ولهذا فقدت كل أمل فى أن تكون أمًّا، وانخفضت بالتالى فرصها فى أن تكون زوجة، إلا كزوجة لزوج آخر مثلى لا يريد أولادًا، لقد كانت امرأة لُقطة، وأنا الذى كنت أبحث عن زوجة بمواصفات مستحيلة: الجمال والعذرية والسن الصغير، باختصار امرأة عشيقة لا تنجب، وها هى تأتينى كمثل إبرة فى رمال الصحراء الغربية، لكنها تأتينى ومعها ذكريات

"السقنقور" ورائحة عطر وعرق النساء السمينة اللزجة فى أتوبيسات القاهرة المزدحمة، وأنا لا أحتاج السقنقور فى ظل توافر المال اللازم لشراء فياجرا أصلية والحمد لله، ثم ما حاجتى للمقويات؟ ولكن هل يعد أدائى مع زوجتى -التى انخفضت لقاءاتى بها حتى انعدمت- كمقياس للمعدل المتدهور لفحولتى؟ لا بأس إن احتاجت تلك الصغيرة لأن أستعد كل مرة لها بقرص مقوٍّ.

تنبهت من تدفق أفكارى على نقر على زجاج سيارتى، نظرت بامتعاض إلى صاحب الأنامل الغليظة، وأنزلت زجاج سيارتى الكهربائى قليلاً، فقال لى باقتضاب وجهامة:

- بوليس الآداب.

فتحت باب سيارتى، ونزلت منزعجًا، وتنحيت به جانبًا، وأبرزت له بطاقة عملى المثبتة بها وظيفتى كموظف فى مكتب وزير الاتصالات، فالتقطها وابتسم وبدا أنه سيستغلنى كعادة أمثاله من المبتزين من أصحاب السلطة لأصحاب المناصب:

- طب سعادتك أنا ابنى معاه هندسة اتصالات، وكان عايز يشتغل فى شركة الاتصالات.

- بس أنا مش صاحب شركة، أنا حياللّه موظف فى مكتب وزير الاتصالات.

رمقنى غاضباً وقال:

- لكن بصراحة كده، انت كنت بتبوسها. صح؟

- أبداً، دى مراتى وكانت بتنتف لى شعر مناخيرى.

نظر لى وكأنى معتوه أو ساذج ثم انفجر ضاحكًا، وقال :

- كلكم بتقولوا مراتى، بس أول مرة حد يقول الحجة بتاعة النتف دى.. يا بيه، يا بيه قول كلام غير ده وأنا أصدقك.

ملت عليه وكأنى لا أريد لأحد أن يسمعنا رغم أن كوبرى الدائرى كان شبه خال من المارة باستثناء بعض السيارات التى تفر بسرعة فائقة، وقلت هامسا :

- شوف، أنا عارف إن الواحد لو باس مراته فى الشارع بتدفّعوه غرامة، لكن صدقنى دى فعلا مراتى، ووالله ماكانت بتبوسنى.

- ومراتك هتنتف لك مناخيرك فى الشارع ليه؟ هه، طب ما البيت موجود.

- دى مراتى التانية يا جدع، وبعدين لو انت عملت لى أى إجراء هتتسبب فى خراب بيتى الأولانى.

استمر يرمقنى بنظرته ففهمت وقلت :

- ابعت لى ابنك بكره أحاول أساعده.

ودفعت له بكارت فيه كل أرقامى وإيميلاتى، فقال :

- مش هابعته بكره علشان القلق اللى احتمال يبقى موجود فى البلد بمناسبة مظاهرات ٢٥ يناير.. هابعته بعد بكره.

ثم أردف بقلق :

- هو يا بيه ممكن تحصل حاجة فعلا زى "تونس".

قلت بثقة :

- أكيد، وهتشوف، هم بيقولوا إن إحنا مش تونس، بس إحنا هنطلع أجدع منهم.

ازداد قلق الرجل، ورفّ في عينيه سؤال طالما رأيته في أعين الذين أواجههم بكلماتي المعارضة للنظام، نظرة تعجب من كوني موظفًا في مكتب وزير ثم أتجرأ على أن أقول مثل هذا الكلام، والحقيقة التي كنت أعتقدها يقينا في هذا اليوم أنني كنت واثقا من حدوث تجمع كبير من عدة مئات سترتعد له الشرطة في عيدها الموافق الخامس والعشرين من يناير، وفقط لأنني تشربت منذ زمن قناعة صرخ بها في وجهي أديب كبير مخمور ونحن جالسان في مقهى "الجريون":

- الشعب ده ملعوب في أساسه؛ انسى، ده شعب ولا مؤاخذة يعني.

وبنفس ثقتي في أنَّ شيئًا كبيرًا لن يحدث غدًا، كانت لهجتي واثقة وأنا أبشر الشرطي بكارثة ستحل بهم، كنت أريد أن أصدّر له القلق الذي ألقاه في روعي منذ قليل.

واستدعي مشهد الرجل وعيناه سارحتان، عيني ثعلب يرتدي ملابس مدنية، بينما هو شرطي سري في جهاز مباحث أمن الدولة، كان قبل عام ٢٠٠٥ يراقبني واقفًا على سلالم نقابة الصحفيين، أهتف وسط نحو خمسمائة من المثقفين المناضلين من التيارات كافة المنخرطين حديثًا في حركة جامعة للأشواق اسمها "كفاية":

- كفاية.. حرام، يسقط الرئيس.

السقنقور، وكفاية، ومنعم، ومخبر أمن الدولة، ما بال هذه الليلة تجر لي ذيولاً أريد أن أقطعها حتى لا يتصل ماضيّ التعس بحاضري المستريح، وكدت أقول لشرطي الآداب لا تقلق يا عزيزي، دولتكم قوية، وقد جاءنا أحد أكابر وزارتكم منذ أيام في مقر وزارة الاتصالات، وأبلغونا بالاستعداد في أية لحظة لتلقي أوامر بقطع كل خدمات الاتصالات والإنترنت عن المصريين، واستجبنا جميعا بلا تردد، وخرجت من مقر الوزارة بين الرفاق أتحسس صدري مندهشاً كيف لم يضق؟ كيف تلقيت ما جرى بضمير محايد، لم أثر، لم أغضب، لم أعترض، كما لو كان ما يجري يحدث لأحد غيري، في بلد آخر، لو أن ما تم قد حدث منذ خمس سنوات أو يزيد، لكنت قد ضربت مائدة الاجتماع بقبضة يدي معترضاً، ثم قلبتها في وجوههم، وخرجت لا أعبأ بالعواقب، أو هكذا كنت أتمنى أن أفعل.

أعاد شرطي الآداب لي بطاقتي باحترام مبالغ فيه، ومضى ينقر زجاج سيارات أخرى، وبدون كلام خرجت له من نافذة السيارة ورقة من فئة الجنيهات الخمس، دسها في جيبه، ومشى إلى سيارة أخرى، وندمت على أنني لم أفهم ولم أفعل مثل الباقين، وقلت إني -رغم ادعائي الفهم- لم أفهم بعدُ بعض الناس وجُلّ السلطة.

قالت لي "فاتن" بعد أن أيقنت أن الشرطي قد ابتعد بما فيه الكفاية:

- هي شقة "الشروق" بعيدة قوي؟ أصل كنت محتاجة أعاين قبل ما نرتبط يمكن ما تعجبنيش؟

كلامها كالعادة يحمل معنيين، طريقتها فى الكلام تؤكد أنها تقصد أن تعاين قدراتى الجسمانية لأن مثلى ممن هم فى الخمسينيات، يكونون منخفضى القدرة، فضلا عن انعدام الجودة فى الأداء، ولو كنت سألتها عما تريد أن تعاينه بالضبط لقالت فوراً "الشقة" رغم أن عينيها كانتا تقولان إنها تقصد معاينتى شخصيًّا، لأنهما تنضحان بالرغبة.

- أيوه بعيدة.

وكنت لا أريد أن ألوث شقتى، مأواى الوحيد الذى أملكه بعيداً عن فيلا زوجتى، فلقد عاهدت الله على ألا تدخله إلا زوجة تعوضنى حرمان السنين من امرأة أحبها لذاتها، لا لعقاراتها، ولا للأمان الذى توفره لى عبر عائلتها الثرية صاحبة الأملاك والأعمال، كحال زوجتى، زوجتى الحالية التى اخترتها لأن لديها فيلا فارهة فى حى راق، لم أستطع أن أحبها -زوجتى- رغم أنها تحبنى لدرجة الجنون، أو هكذا كانت حتى وقت قريب.

ومنذ سنوات قليلة، عندما دخلت شقتى لأول مرة، سجدت لله شكراً، فقد كان حلم عمرى منذ سنوات طويلة أن تكون عندى شقة محترمة أمتلكها، أمتلكها منفرداً وباسمى، بعد أن حاصرنى الحرمان من مأوى أملكه، وكأنّ قدراً سماويًّا ظل يتعقبنى بالحرمان من مسكن ملكى، عقاباً على طمعى فى مسكنها، مسكن زوجنى، فلم أظفر لوقت طويل، لا بالشقة التى أملكها، ولا بالمرأة التى أحبها وطوال عشرين عامًا، لم أستطع أن أدخر ما يمكننى من شرائها،

فكلما ادخرت مبلغًا أجده لا يكافئ الأسعار المتزايدة باضطراد ، كنت كمن يسابق صاروخًا ، أما من تستحق أن أحبها ، فلم أعثر عليها طوال بحثى الطويل ، وعندما يئست من لقائها ، كانت قدرات زوجتى على إسعاد جسدى فقط -تلك التى كانت تفعلها- قد ذبلت ، فاكتفيت بالبحث عمن تكفينى حاجتى الجسدية -لا العاطفية- بالحلال ، وحتى هذه لم أجدها إلا فى مطلقة ترغب فى الستر ، أو أرملة تبحث عن الأمان ، ومعظمهن يظهرن فى حياتى بأطفالهن وعُقَدهن من فرط ما رأين من رجال أنذال شرهين مترعين بالشهوة ، فمثلهن يظللن هدفًا ثمينًا وصيدًا سهلاً لراغبى المتعة العابرة ، ثم أجد الواحدة منهن تسألنى ، ونحن نتفق على التفاصيل ، عن عدد الأطفال الذين سننجبهم . لماذا الأطفال وعندى وعندهن من الأولاد ما يروى ظمأ الأبوة والأمومة ؟

ظللت أترنح ، حتى ظهرت "فاتن" .. تلك المثيرة الصغيرة اللقطة العذراء ، عذراء ؟ غالبًا عذراء ، رغم ما أبدته ليلة الخامس والعشرين من يناير من تدلل ورغبة مفضوحة ، فهل فعلتها من قبل مع رجال آخرين ؟ ربما تكون قد استجابت سريعًا لمحاولاتهم استدراجها لممارسة الجنس ، إلى درجة ما ، جنس سطحى كالمراهقين ، فهى تبدو محتشمة فى مظهرها ، وهو ما يهدئ مخاوفى تجاه ماضيها الذى أجهله وحاضرها الذى أعلم عنه القليل ، تلك المثيرة الصغيرة البائسة التى انتزعتنى من أفكارى قائلة :

– طيب نشوفها بكرة ؟

- ممكن، بعد ما نكتب ورقة العرفي عند المحامي.

وانطلقت بسيارتي كأنما أفرُّ من مكمن قلق سيطر على المكان حيث كنت أقف، وأرجعت سببه إلي خوفي من مباحث الآداب، أو من أن تعرف زوجتي يوماً بالأمر فتطردني من حياتها، وكنت أرتعب من هذه الفكرة في الماضي، لأنني بلا مأوى، أما وقد امتلكت المأوى، فلا خوف ولا قلق، وغداً سأكسر مع "فاتن" آخر جدار خوف بنته حاجتي إلي زوجتي كسكن ومسكن، بعدما تحررت منها من قبل كمصدر للرزق، الرزق الذي كان مصدره الوحيد قبل سنوات هو شركة أبيها.

(٣)

الناس سعداء جداً هنا بالميدان، رغم قسوة التفاصيل اليومية للحياة، فالطوابير الطويلة -طول ١٨ يوماً من الانتظار الثقيل- لا تنتهى، عند حمامات مسجد "عمر مكرم"، أجدنى غير قادر على احتمال مثل هذه المتاعب، أريد أن أغتسل من نجاسة معاشرتى لـ"فاتن" إذا جاز أن أسمى ما جرى من جنس سطحى معاشرة، معاشرتى التى تمت ظهيرة الخامس والعشرين من يناير، لكننى لا أحتمل الطوابير والماء البارد فى شتاء يناير، وأنا الذى تعودت على ما هو أسوأ منه قبل ربع قرن، حينما اندفعت يوماً مسرعاً ناحية حمام شقة "أبو أتاتة"، فوجدت بابه مغلقاً وصوت تغوط الدكتور "عثمان" ينبعث غليظاً خشناً من داخله.

- والنبى يا دكتور"عثمان" تخرج بسرعة المرة دى، محتاج الحمام بسرعة يا خويا.

رد "عثمان" بكلام كثير لم أفهمه، حيث غطى عليه صوت تغوطه الذى أخذ يتعالى ويتسارع، وانتبهت لكلمة "أخويا" التى أتلفظ بها لأول مرة متأثراً بما قاله لى ضابط أمن الدولة فى نفس تلك الليلة، بمقره بـ"جابر بن حيان"، حينما ربت على كتفى قائلاً:

- أخويا لو شاف حاجة فى المنطقة ولا فى الشغل أكيد هيقولهالى على طول.

لم أرد عليه وقتها، خشيت التورط فيما لا ينفع معه الرجوع، وكان قد استدعانى عن طريق "على" مالك المنزل الذى نقيم فيه وعضو الحزب الوطنى، ويبدو أن "على" هو الذى أبلغه عنى بعدما قرأ فى بطاقتى الشخصية أننى من مواليد محافظة "أسيوط" المكتظة بأعضاء الجماعة الإسلامية، الذين قاموا مؤخراً بالانتقام لمقتل أحد قيادييها، باغتيال أحد السياسيين.

خرجت ليلتها من عند الضابط بعدها مرتبكًا، ثم ألقيت بجثتى المنتفضة بالتوتر فى أول أتوبيس مزدحم، أبرزت اشتراك الأتوبيس "الأبونيه" للكمسارى، والتحمت بالركاب وانتبهت إلى أننى نسيت فى غمرة ارتباكى أن أضع فى جيبى ليمونة نسميها نحن ركاب الأتوبيس "لمونة تيست"، لاختبار مدى ثبات النساء فى الأتوبيس، بالوقوف وراءهن بالجنب، فإذا لم تبد اعتراضاً، اعتدلنا منتصبين لنقف وراءهن تماماً، حتى يقضى الواحد منا حاجته السطحية التى تنتهى بارتعاشة شبه ملحوظة، يحفظ علاماتها الكمسارى ورواد الأتوبيس.

ليلتها، بعد خروجي من مبنى أمن الدولة، صعدت ورائى مباشرة فتاة سمراء بعباءة شفافة بيضاء، أخذت تردد بصوت عال وبلهجة ريفية مثيرة أن هذا الزحام خطر عليها، وأضافت فى تهتك أنها لن تحتمل لمسة من أحد، لأنها ترى رجالاً أشداء ممتلئين بالفحولة، نهرها شيخ عجوز، وسألها الكمسارى فى رقاعة عن بلدها، وقام شاب جامعي وأجلسها مكانه بجوار زميله، ورأيتنى مثاراً بشدة خلف امرأة، ولا أحد يلاحظ أحداً، فالكل مشدود ومنتبه للفتاة التى تلقى نظرة دلال لكل ناظر، وأوشكت أن أفرغ طاقتى وأقضى حاجتى، ثوانٍ بقيت، وفجأة نهضت من مكانها تردد نفس عباراتها وهى تندس وسط الرجال المتزاحمين الذين كادوا يعتصرونها، ومررت جسدها الممشوق حتى وصلت إلى الباب الخلفى المفتوح دائماً ونزلت فنزل وراءها خلق كثير، يتقدمهم الشاب، ووجدتنى أهتز مرتعشاً ثم أحس بلزوجة دافئة تنسال بين قدمى، وأفقت من فتنة الفتاة على امرأة فى السبعين من عمرها كانت تقف أمامى تماماً، وقالت لى بعد أن هدأت:

– حاجة لله يا بنى قبل ما تنزل.

فدسست في يدها ببريزة، ثم بدأت أشق الزحام ناحية الباب الأمامى، وقد أدركت أن محطة بين السرايات قد تجاوزها الأتوبيس،

تذكرت وأنا أنزل من الأتوبيس على بعد كيلومترين من شقة "أبو أتاتة" أننى لم أصلِّ المغرب بعد، وأننى لا بد من أن أسرع الخطو لأغتسل فى حمام الشقة قبل آذان المغرب، ودخلت مسرعاً وخلعت

ملابسى وألقيتها على السرير فسقطت على وجه "منيب" النائم، فلم يشعر، وهرعت بملابسى الداخلية ناحية الحمام لتصدمنى أصوات تغوط "عثمان" السابقة الذكر ورائحته النفاذة.

- يا أخ عثمان.. قرّبت؟

- يا عم قلت لك إن الله مع الصابرين.

هب من سريره المهندس "عثمان" رفيق الدكتور "عثمان" فى الغرفة الأخرى المجاورة لغرفتنا بالشقة، وصرخ بصوت عظيم ارتجت له أركان البيت القديم:

- يا أخ "عثمان".. ميت مرة أقول لك بلاش تذكر اسم الله وانت فى الحمام.

رد عثمان بصوت متحشرج:

- حاضر.. حاضر، هانت هااااانت.

أخذت أذرع الصالة التى يطل عليها الحمام والغرفتان، وخطر لى خاطر طريف بأن هذه الشقة تختصر "مصر": يملكها رجل الحزب الوطنى، ويقيم بها عضو من الإخوان هو المهندس "عثمان"، وعضو من الجماعة الاسلامية هو "منعم"، وأقلية مثقفة ذات ميول يسارية هو أنا، واثنان يمثلان الأغلبية الصامتة، هما الدكتور "عثمان" و"منيب"، وقطع خواطرى صوت صادر من موقد الغاز الصغير الذى نطهى عليه الطعام ونغلى عليه الشاى واليانسون، صوت كالفحيح خافت لا يكاد يُسمع، اقتربت بأذنى منه، وسمعته يُنفِّس، وصرخت مستغيثًا بـ"منعم" والجميع، منبهًا إياهم للكارثة، فجاءنى صوت "منعم" هادئًا:

– يا جدع ما تقلقش، ده أنا سايبه يطلع الهوا اللى فيه.

وابتسمت ساخراً وقلت لنفسى إنها هى مصر فعلا، تلخصها حكاية التنفيس، خرج الدكتور "عثمان" من الحمام، فأسرعت للداخل واغتسلت بماء بارد وخرجت مسرعًا متوقعًا آذان العشاء فى أية ثانية، والتقطت بنطلونى المعلق فى المسمار المثبت بالحائط كمشجب، واكتشفت به آثار بقعة جافة خشنة فوق قماش الجيب العلوى الأيسر، وخشيت أن يكون ذلك السائل المنوى الذى يتدفق منى فى الأتوبيس يوميًّا قد تسرب للبنطلون، واستبعدت هذا الاحتمال لأنى أتخذ عادة احتياطات متعددة، منها لبس لباس بلدى، سميك القماش.

شممت مكان البقعة فى البنطلون قبل أن أرتديه حتى لا يفسد صلاتى لو ارتديته، فاكتشفت رائحة ليمون، مددت يدى للجيب واستخرجت منه ليمونة ذابلة ومثقوبة، وخمنت أنها ربما تكون قد علقت بسن مسمار فى باب الأتوبيس، فثقبها، وانسال السائل على البنطلون، وربما يكون شىء آخر نسيته فى البنطلون، ولا بد من أن الجميع قد لاحظوا البقعة: الكمسارى والركاب والسيدة التى كانت تقف أمامى ساعتها وسكان الشارع ورفاق السكن.

أفقت على صوت آذان العشاء، وحزنت جدًّا لفوات صلاة المغرب، فالمغرب غريب كما كانت تقول لى أمى.

(٤)

أنظر يميناً فى الميدان، حيث ينام بين جنزير دبابة الجيش، شاب ملتح، لو تحركت سنتيمتراً لفرمته داخلها، اندهشت من شجاعته، وتذكرتنى عندما كنت قبل ثلاثين عاماً عائداً إلى أسيوط، فى قطار الدرجة الثالثة قبل عيد الأضحى بساعات، ولم أجد مكانا فى القطار سوى فوق الرف، بين مقطف وحقيبة سفر، وبقفزة واحدة كنت بينهما، ثم أزحتهما قليلاً وتمددت وقلت لنفسى إننى لن أغفو، ولو حدث وغفوت فإن أية فرملة فجائية للقطار، سوف تلقى بى فوراً من باب القطار المفتوح، لذلك فالرعب سيمنعنى من أن أغفو، ورغماً عنى، غفوت.

لا يفارقنى هذا المشهد، كلما ركبت سيارتى التى أكرمنى ربنا بها، وصرت وأنا داخل السيارة الـ"تويوتا" المكيفة بالهواء الساخن أو البارد،

أنظر من موقعى بأسفل لأعلى ناحية الركاب المكدسين فى الأتوبيس، ومن نظرات أعينهم التى تسترق النظر للسيدات، أدرك ما ينوون فعله، ومن ارتعاشات أجساد بعضهم، أعلم ما يفعلونه فعلاً.

لكننى رغم راحة السيارة المكيفة والمكتب المكيف، تنتابنى نوبات إرهاق عام شديدة، لم أكن أحس بها يوم كنت أعانى المرمطة فى الأتوبيس والعمل، وهى نوبات لا يحس بها ساعى مكتبى الذى يكبرنى بسنوات، ويعيش الآن فى ظروف شبيهة بتلك التى كنت أعيشها منذ بضع وعشرين عاماً.

كنت أنظر للأتوبيس وللشوارع وأرددها: صدق "منعم"؛ لا شيء يتغير.

وبين الحين والآخر، أرددها لنفسى مراراً، لم يتغير شيء، ولن يتغير شيء فى هذا البلد، ولولا أن زوجتى أحبتنى، ما تغير حالى أنا شخصياً، بعدما قبل بى أبوها زوجاً لها نزولاً على رغبة وإصرار ابنته، وأنا المعدم الذى لا أملك إلا أفكاراً خرقاء وثقافة حمقاء، واضطر أبوها لانتشالى من الفقر وتشغيلى بشركته التجارية مشرفاً إدارياً ثم مديراً، لولا ذلك لما تمكنت من أوفر لها مستوى معيشياً لائقاً.

لقد كنت كتلة بشرية زائدة دائماً، تقتات على فتات الآخرين وما يتبقى منهم: زاداً فى موائد الرحمن، وسريراً فى شقة "أبو أتاتة"، وموضع قدم فى الأتوبيس، ومربع خشب مكتبى فى عملى القديم كمترجم.

لم أكن أدرك مطلقًا سر حالة الإرهاق التى تنتابنى بين الحين والآخر، ولم أعرض نفسى يومًا على طبيب ليشخصها، وهى نفس الحالة التى داهمتنى صبيحة الخامس والعشرين من يناير. والتى جعلتنى، وأنا أقود سيارتى، راغبا فى النوم بشدة غير قادر على فعل شىء، وكانت "فاتن" معى صبيحة ذلك اليوم المشهود.

– لسه كتير ع الشقة؟

– عشر دقايق يا قطة.

فأخذت تعبث بشعرى الخفيف وأنا أقود السيارة، واتصل بى على المحمول "منيب":

– محتاجك تقول لى تصريح على لسانك من مواطن رافض للخروج على الشرعية، هنذيعه فى القناة الأولى باعتبارك مواطن يدين دعوات الإثارة، وأن دعوة النهارده للتظاهر فشلت، بدليل تجمع بضع عشرات عند نقابة الصحفيين و...

قاطعته:

– "منيب".. الساعة لسه ١٢، والدعوة ع الفيس بوك كانت بتقول إن التجمع للتظاهر هيبقى فى نقاط مختلفة من الساعة اتنين.

– ولو.. احنا عايزين نوصل رسالة للناس اللى لسه ما نزلتش.

انفجرت ضاحكًا وقلت بسخرية:

– لو عايز الناس تصدقكم، قول عكس اللى انتوا عايزين تقولوه.

– طب انت توقعاتك إيه؟

قلت وأنا أنظر ناحية الأتوبيس المكتظ الذى لا يزال يسير بجانبى :

- يا عم، سيبك انت ، مش حيحصل حاجة، ده شعب لا مؤاخذة .

قهقه "منيب" ثم أغلق الخط . فقلت لـ"فاتن" :

- ده "منيب" صاحبى ، معد فى التليفزيون ، وكان عايز ياخد رأيى ، وزى ما سمعتى كده ، ولا إنتى إيه رأيك ؟

- أنا ماليش ف السياسة .

- يا ريت تكون السياسة بس اللى انتى ما بتفهميش فيها .

ضحكت "فاتن" برقاعة استشارتنى فضغطت على البنزين أستحث الطريق ، ولاح التجمع السكنى الذى تقع به شقتى من بعيد .

شعرت بدبيب قلق البارحة يسرى فى بدنى مجدداً ، وقلت إنها -زوجتى- لن تعرف مطلقًا ، ولو عرفت هى فالكرة فى ملعبها ، ولو أرادت الطلاق فسأمنحه لها راضيًا مرضيًا ، فالأولاد كبروا ولا يحتاجوننى كما كانوا صغاراً ، وهى لا تحتاجنى إلا استكمالاً لديكور الأسرة أمام المجتمع ، وأنا على شفا الوقوع فى خطيئة عظيمة لم أقع بها عندما كنت شابًا أعزب ، أى نعم قد أشبعت رغبتى من النساء من قبل بطرق أخرى ، لكنها لم تصل إلى حد الخطيئة التى أوشك على الوقوع بها هذه الأيام ، لم يعد الجنس السطحى يشبعنى بعد أن ولجت أعماقه ، وقلت لنفسى إننى سأتماسك ، ولن أرتكب شيئًا مع "فاتن" ، ونحن داخل الشقة .

ماذا لدى زوجتى لكى أحتاجه؟ امرأة؟ ذهبت، سكن؟ لدىّ مثله، شركة أبيها؟ تركتها وانتقلت أنا للعمل مديراً فى مكتب وزير الاتصالات.

مِمّ أقلق؟ كلام الناس؟ وهل سيصفقون لى عندما يرون صورى فى الصحف ملفوفًا فى ملاءة بيضاء ومجروراً بيد شرطة الآداب؟

أعرف ماذا سيقولون فى الحالتين:

– الشايب العايب المثقف المحترم، متصابى.

لقد أهلكت أطنانًا من الكتب لم تزدنى إلا فقراً من المال ووعيًا بقسوة الحال وانعزالاً عن القوم، تشكلت لدى رؤى بأن النساء يتساوين، نعم يتساوين إذا وعيت جوهرهن بعقلك فقط، ولكنهن مختلفات عندما تنظر لهن بعين الغريزة، لتجد ميولك تجرك نحوهن لمجرد كونهن كيانًا يشبع رغبة الجسد للارتواء والقلب للحب، لا تكفيك حينها عشر نساء، لا سيما والعمر ينسحب بشهواته ونزواته.

أغمض عقلك، وألق بجسدك وسط أجسادهن بلا تفكير فى طبائعهن.

وكنا قد وصلنا مبتغانا، شقتى العزيزة، حلم عمرى الذى لم أنله إلا متأخراً وقد حلمت به منذ تخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، هو المكان الذى لن يطردنى منه رئيس الجامعة لأننى تجرأت واعترضت طريق ضابط أمن الدولة عندما دخل المدرج دون استئذان أثناء محاضرتى للطلاب، طردت الضابط منه مدافعًا عن

الطالب رئيس رابطة الطلاب الاشتراكيين، هو المكان الذى لن يطردنى منه "منعم" لأننى لا أقوم بخدمته كزوجة، هو المكان الذى لن تطردنى منه زوجتى عندما تغضب علىَّ، هى شقتى، هى مملكتى، هي ادخار العمر من حر مالي، هى ثمرة معلومة قدمتها لصاحب شركة تطوير عقارى، مجرد معلومة بسيطة تجعله يعمل ويكسب، وكانت هذه الشقة فى تجمعه السكنى، هدية بسيطة منه لى مقابل هذه المعلومة.. من تضرر؟ لا ضرر ولا ضرار، تلك هى القاعدة الشرعية الفاصلة بين الحلال والحرام، وأنا لم ألحق ضرراً بأحد.

لم أر شرطيًّا طوال الطريق إلى الشقة، كالمعتاد، فى هذه المناطق قليلة السكان، ولم يكن يلفت انتباهى ندرة رجال الشرطة، لكننى التفت لتلك الملاحظة اليوم ربما لأنه عيدهم الذى سرت فيه الدعوة لثورة، وكانوا محتشدين فى الميادين والشوارع، يتأهبون للقمع.

خطوت ناحية الشقة تتبعنى "فاتن"، لم تكن تنتابنى ساعتها رعشة المذنب كعادتي عندما أقدم على فعل أعتقد بحرمته، وهى الرعشة التى انتابتنى لأول مرة، عندما اصطحبت فتاة من سنى وكنت فى الثانوية العامة، ومشيت بها فى كل مكان يعرفنى فيه أهل المنطقة لكى أثبت للجميع أنى منحرف منفلت لا علاقة لى بالإخوان المسلمين، ولست عضواً بالجماعة الإسلامية، الذين بدأت تلوح بواكير الصدام بينهم وبين الدولة نهاية السبعينيات، ظللت أتسكع بالفتاة الشهيرة بسمعتها السيئة فى شوارع مدينة "أسيوط" راجياً أن يضربنى أمير من أمراء الجماعة فيتأكد لأمن الدولة ما أريد

أن أوصله لهم، لأزيل من ملفي ما أوصله لهم مخبر مغرض من قبل، وبناء على تقريره، بدأوا في تقصى أحوالى بين معارفى وأصدقائى.

حادثة موغلة فى تاريخى، مضيت يومها بالفتاة لكنَ أحداً لم يكترث لنا، باستثناء رجل تتبعنا حتى وصلنا إلى منطقة مظلمة، وتمنيت أن يكون مخبراً فوضعت ذراعى على كتف الفتاة لأثبت لها ولهم أننى عند حسن ظنونهم، ولاحظت هى ارتعاشتى المؤمنة، فضحكت ساخرة ثم برز لنا من الظلام الرجل الذى تتبعنا وأنتظره، فقلت له إننى من عائلة فلان فتركنا معتذراً، وأسفت أنا لأنه لم يكن -كما ظننته- مخبراً، وظننت أنهم اختفوا يومها فجأة من البلدة، كما حدث يوم ٢٥ يناير ولا شرطة تبدو فى أى مكان.

عندما ولجت الشقة، دخلتها "فاتن" خلفى وأغلقت الباب وراءها ببساطة من يدخل مكانًا يعرفه، كان المكان متربًا فشرعت هى فى نفض التراب عن مكان جلوسها، ولم يكن بالثلاجة سوى ماء فاتر حيث الكهرباء مقطوعة، فخرجت بحثًا عن مطعم أو سوبر ماركت، وعرجت فى الطريق على صيدلية وقمت بقياس الضغط، متوقعًا أن يكون ما بى من إحساس بالإرهاق نتاج انخفاض ضغطى، وكانت الصيدلية بجوار مسجد، فقلت إنها رسالة من الله لكى لا أقع فى الفاحشة، ها هو يساعدنى لأمتنع عن الوقوع فيها بأن يجعل الضغط ينخفض، ثم أقيسه فى صيدلية بجوار مسجد، فلأصبرن بضع ساعات ريثما أقوم بكتابة عقد الزواج العرفى على "فاتن"، صبرت طويلاً دون تمرد على واقعى، ولا بأس من عدة ساعات أخرى من الصبر.

قال الصيدلى إن ما أحس به هو مجرد إرهاق نتاج قلق أو توتر ولا علاقة له بمرض، فقلت له :

- عندك "مقوى" عام لا يؤثر بالسلب على مريض الضغط ؟

مد يده وتناول علبة أقراص، تناولتها من يده وقرأت نشرتها سريعًا ثم دفعت ثمنها وتناولت قرصًا بشكل لا إرادى ثم خرجت من عنده متسائلا ما الذى دفعنى لمقاومة الإرهاق الآن بهذه العجلة، هل ضغط عقلى الباطن علىّ خشية أن تطلبنى "فاتن" فأخذلها وأغضبها ؟ أترانى أغضبت الله بما فعلته من استعدادات طبية ؟

وضعت هى الطعام على المائدة وكأنها ربة منزل فى بيتها، لكنها كانت بملابسها الكاملة، وحجابها فوق رأسها لم ينحسر إلا عن خصلتين زادت وجهها بهاءً، فتأملتها مليًّا وتذكرت زوجتى التى فقدت كثيراً من حيويتها حتى فى الأعمال المنزلية الاعتيادية، معتمدة على ابنتنا الكبرى التى توزع وقتها ما بين المذاكرة فى كلية الطب والأعمال المنزلية، تمامًا كما اعتمدت أنا على ابنى ليحل محلى فى جلب ما يحتاجونه هم من خارج المنزل.

سرى النشاط والحيوية فى بدنى، بعدما امتلأت معدتى بالطعام، أكلت بشهية مفتوحة وغريبة، ثم ابتلعت قرصًا آخر مقويًّا وبدأت أقاوم تحريض الشيطان لى على "فاتن"، بالتقليب فى جهاز المحمول، مدفوعًا ببعض الفضول لمعرفة ما جرى فى البلاد من تظاهرات، فالساعة بلغت الثالثة عصراً، وذهلت عندما قرأت فى خدمة الأخبار العاجلة أن عشرات الالآف يتظاهرون الآن فى مناطق مختلفة

بالقاهرة، فسارعت بفتح موقع "تويتر" وعرفت أن مفتاح البحث عن أحداث التظاهر هو (25 Jan) فكتبتها فى خانة البحث لأتابع مستجدات التظاهرات أولا بأول، ووجدت سيلاً متدفقًا من الأخبار والتوصيات، بعضها يخبر بوجود صدامات بين الشرطة والمتظاهرين أمام دار القضاء العالى وأخرى أمام نقابة الصحفيين، وثالثة تدعو إلى تغيير مسار المسيرة القادمة من بولاق الدكرور والسائرة فى جامعة الدول العربية، والدخول شارع البطل أحمد عبد العزيز بدلاً من الاتجاه إلى ميدان سفنكس، وأن الهدف للجميع هو ميدان التحرير، وقالت "فاتن" إنها رأت ملاءة السرير وأغطية الوسائد فى أكياسها، وقلت لها إنها تنتظر يد العروس لتخرجها وتضعها حيث تكون، وكنت أريد أن يغمرنى شعور عريس فى ليلة دخلته، ونجح بعض الشباب فى اختراق حواجز الأمن المركزى ووصلوا ميدان التحرير من ناحية "عبد المنعم رياض" وقصر العينى، ونهضت "فاتن" متجهة ناحية غرفة النوم، وأخذت تخرج الملاءات والأغطية من أكياسها، وأنا بين مشاعر متضاربة قلقًا مما هو قادم، وخوفًا من الوقوع معها فيما لا أحب وقوعه الآن، وحفيف ندم خفيف يسرى فى نفسى على فوات المشاركة فى التظاهرات، ونادتنى:

– تعالى ساعدنى نكبس المخدة فى الغطا.

نهضت وأمسكت هى بالغطاء وبدأت أنا فى إيلاج الوسادة داخل الغطاء، فقالت بميوعة استثارتنى:

– دخّل جامد.

حاولت أن أتماسك ولم أعلق، وتخيلت شكل ميدان التحرير وعشرات الآلاف يتدفقون عليه، وصدى هتافات يرن فى وجدانى صاعدة إلىَ من "تويتر" :

- عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

وعندما وصلت الوسادة إلى منتصف الغطاء، مدت هى يدها داخل الغطاء وقالت:

- دلوقتى بقى، شد جامد.

أمسكت أنا بأطراف الغطاء، ثم سحبته بقوة انتزعت "فاتن" من مكانها وألقت بها أمامى مباشرة وهىَ تشهق، وكان المشهد جليلاً فى مخيلتى، أشواق عشرات السنين من عمرى، عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية، وكنت أود لو أننى استطعت التجاوب مع لحظة تمرد انتظرتها طويلاً.

فضربتنى على كتفى بدلال وهى تبتسم، ولم يكن بيننا سوى بضع سنتيمترات هى حجم الوسادة التى تفصل جسدينا:

- ده انت طويل قوى، بان الفرق بيننا لما قربنا من بعضنا.

ابتسمت فخوراً ثم أسقطنا الوسادة، واستدعى مشهد سقوطها أمنيات قديمة بانهيار النظام الحاكم، لم تعد أمنيات الآن، وجذبت "فاتن" نحوى فصارت بين ذراعى تماماً، وقلت إنه لن يضير بضع قبلات وأحضان مع فتاة ستصير عما قريب امرأتى، ولن يضير اليوم بضع شهداء يسقطون فتنهض ثورة حقيقية وليس تظاهرات تنتهى بانتهاء اليوم، فاقتربنا واختلطت أنفاسنا، فضممتها إلىّ وقبلتها

ففوجئت بها تلتهم شفتى وهى تتعلق برقبتى وتتلوى بين ذراعى كعجينة طرية شهية، وتذكرت زوجتى الباردة التى تختنق من طول القبلة، ولا يثيرها إلا مجهود خارق منى، أترى "فاتن" غير مختتنة لذلك فهى سهلة الإثارة؟ أترى الناس كلها تستجيب اليوم؟

ونحن عاريان تماماً على السرير، كان جسدانا يلتصقان من أثر بعض العرق، وشدة الاحتضان والتمرغ لم تحدث اتصالا كاملا، بعض الجنس السطحى فقط، وفكرت أن أتصل بالمحامى والشاهدين لأبلغهما بأنى تزوجتها، وليشهدا الزواج الآن وهم معى على الخط، ولم يرد على اتصالى أحد، كنت لا أزال أريدها عملية جنسية كاملة، وقلت إن ربنا غفور رحيم، فقاومتنى بقوة أدهشتنى، وقالت لى إنه حرام، وإن عندها طريقة أخرى ستجعلنا نستمتع كما لو كنا فى عملية كاملة.

واعتليتها واعتلتنى، وأنا أستدعى خبراتى العتيدة العتيقة فى الجنس السطحى، وبدت الفتاة خبيرة به، وعقلى يطن كالمحموم بكلمة واحدة:

- تحرّر تحرّر.

دقائق مرت وكنت قد ارتويت وهدأت وتحررت، وتمددت عارياً فى استرخاء، وبكسل بالغ مددت يدى لألتقط جهازى المحمول، وبدأت فى تقليب الأخبار والتغريدات التى تترى على تويتر، متسائلاً: هل أتيت بكبيرة؟ وكانت الجموع قد التأمت فى ميدان "التحرير" وقررتْ الاعتصام حتى تتحقق مطالب الإصلاح،

والكهرباء المقطوعة تمنعني من الاغتسال بماء السخان الدافئ، فقررت الانتظار قليلا ريثما تعود الكهرباء، وقالت "فاتن" وهي تعبث بشعر صدري العاري: ماتيجي نبات النهارده هنا؟

هذه اليتيمة لا أهل لها يسألون عنها، لكن زوجتي التي أفقدتني مذاق الأشياء ودفعتني للثورة عليها باقتناء "فاتن"، ستشك ألف مرة لو نمت خارج مسكنها ليلة بدون سبب مقنع وبلا مقدمات، وخطر لي أن أقول لزوجتي إنني معتصم في التحرير، لا سيما وأنني لن أستطيع الذهاب اليها برائحة عرق "فاتن"، ستشمها بالتأكيد هذه المرأة التي تمتلك ألف أنف كلب بوليسي.

آه لو حدث قبل خمسة أعوام كل هذا الانفلات خارج الصندوق، كل هذا التمرد على الاحتكار، كل هذا الوعي الجمعي، لانتعشت روحي بالتفاؤل وفار عقلي بالأفكار، وانخرطت فيما يروي ظمأ نفسي، ويشغل فكري، ولقدمت لي ولبلادي ما يناسب طاقاتي وقدري، كل ماعندي كنت أود تقديمه، ولكن نفسي كانت مسدودة، ولا شيء جاد يصلح، ولا أحد يستاهل، لو حدث قبل خمسة أعوام خروجكم -يا قوم- عندما كنت أصيح فيكم طالبًا يقظتكم ومناديًا ضمائركم، لما احتجت إلى "فاتن"، لما تجمعت كل رغباتي وطاقاتي الفكرية والثقافية، وحفرت لنفسها مخرجًا جنسيًّا لها، إنني لم أتحقق كما أريد، لم أتحرر كما أحب، فحاولت أن أتحقق وأتحرر على جسد امرأة، تثبت لي أنني حي، لقد تأخرتم يا قوم، حتى سقطت فيما لم أكن أحب لنفسي ولا تحبون لي، سقطت في شقتي

التى كنت أريدها طاهرة، ولكن هل هى نفسها حلال خالص؟ أم أنها رشوة أخفى تفاصيلها عن كل الناس، ولى عند بلادى وأهلها شقة وسيارة ومدفن، لم أتمكن من ادخار أثمانهم طوال مدة عملى فى دار النشر ولا حتى عند والد زوجتى، زوجتى التى لم تكن لترضى بأقل من مستوى معيشتها السابق، وكان دخلى الكبير من عملى عند والدها، لها كله ولأولادها، كنت كمن يعمل عندها وعند أبيها فى نفس الوقت: أعمل عند أبيها لأتلقى راتبى الذى أنفقه على ابنته وأولادها.

كنت لا أزال أقلب فى تغريدات "تويتر" التى تنبئ عن إصابات وإغماءات تعرض لها المتظاهرون الرابضون فى التحرير، عندما قفز فى شاشة المحمول قاطعًا سيل الأخبار رقم زوجتى، وجاءنى صوتها:

- ابنك بعت لى رسالة على المحمول أنه فى مظاهرات التحرير، ومش عايز يرد على تليفوناتى من الصبح.

ابننا الذى سيكمل العشرين من عمره بعد يومين، أرسل لها رسالته تلك طالبًا دعاءها ومستسمحًا إياها على خروجه بغير إذنها، لماذا لم يرسل لى؟

فى ثانيتين كنت قد ارتديت ملابسى تاركًا "فاتن" ممددة تغط فى نوم عميق ووجهها مثل ملاك فارٍّ من طهر السماء، وقبل أن تمر دقيقة كنت أنطلق بسيارتى مسرعًا ناحية التحرير، ابنى الوحيد كان معرضًا للضياع منى ساعتها، لماذا لم أحسبه ضمن مكاسب الدنيا التى خرجت بها من زوجتى إلى جانب الفيلا والوظيفة؟ ربما

هو المكسب الوحيد، وهل سأظل في خاطره بعد مماتي وأبي لم يمكث في خاطري بعد وفاته سوى يومين؟ كل ما أدخره سيكون له، السيارة والشقة والمدفن الذي تسلمته وشاليه الساحل الشمالي الذي لم أستلمه بعد، كلها ستؤول له ولأختيه، وها أنا أحاول اللحاق برمق اللذة الأخير لأعوض حرمانًا كانوا هم وأمهم سببًا فيه، كم كنت أود أن أظل كاتبًا يساريًا بوهيميًا متشردًا أتسكع في الحانات والمقاهي بلا التزامات أسرية أو وظيفية.

طوال الطريق إلى التحرير، لم أكف عن الاتصال بابني، ابني الوحيد لا يرد، وخواطر شتى تجتاحني، وكنت أردد مبتهلاً:

- ياابني رد، يا مكسبي الوحيد.. رد، يا من أفديه بكل لذة فائتة وآتية.. رد.

ونظرت للسماء وقلت مخاطبًا إياها:

- أتراها لعنتك لي بسبب نجاستي الحاضرة؟ يا رب لا تجعل انتقامك مني في ابني، لا تجعل غضبتك عليّ في ذريتي، أنت عادل يا رب، لا تزر وازرة وزر أخرى، ما ذنبه؟

بحثت في تغريدات تويتر، مصابين كثر لكن لا شهداء، الحمد لله، شكرًا يا رب، احفظهم جميعًا يا رب، لكن الشهداء هم رافعة الثورة، هم أعمدة تثبيتها، ووقودها لكي تستمر حتى تحقيق مطالبها، هم الذين يجعلونا نقول عندما يهتز اليقين وتخفت الهمم: ودم الشهداء؟ فنستمر.

مقهى على جانب الطريق يكتظ بالناس المتحلقين حول تليفزيون فيما يبدو، لو كانوا يتفرجون على مبارة كرة قدم فسأتوقف وأصرخ فيهم:

- شوفوا ابنى وولادكم، ثم أحول القناة لمشاهدة قناتى "الجزيرة" أو "العربية"، وأتركهم.

أبطأت سيارتي ونظرت، كانت "الجزيرة" تبث مشاهد حية للتظاهرات، وابنى لم يرد على الاتصال العشرين بعد المائة، وأمه لا تكف عن الاتصال في هلع فلا أملك لها جوابًا سوى طمأنتها بأنى سأصل إليه حالاً.

اتصلت بـ"منيب" الذى لم يرد هو الآخر، بالتأكيد "منيب" مشغول في استطلاع رأى الكارهين للتظاهرات، لا موقف له ضد أحد أو مع أحد منذ عرفته، هو قطار يسير على قضبان لا يحيد عن هدفه المتجه إليه بلا إرادة منه ولا رغبة، ككل ضباط الأمن المركزى، لم تختلف طبيعته عما كان عليه منذ أول جوال قلقاس باعه في سوق الخضار من ربع قرن أو يزيد، عندما رأى أبوه أن الأسعار غير مناسبة في البلدة، فأرسل الأب "منيبا" -الجالس بلا عمل- مع سيارة نقل محملة بالمحصول الجيد إلى سوق الخضار، وقبل أن يعود "منيب" لبلدته بيوم اتصلت به لأخبره عن فرصة عمل.كمحرر في دار النشر التى أعمل بها، فمكث بها وقام بجمع وتحرير مادة كتاب أحد كبار الكتاب المعروفين، ثم ذهب إليه بالنسخة الكاملة، وطلب منه أن يعمل ببكالوريوس الإعلام في أى قناة تلفزيونية، وكان الرجل شهمًا.

كان والد "منيب" راضيًا عنه فيما يبدو بعد أن عاد له يوم القلقاس بمبلغ محترم، أما أنا، أنا الذى كنت سببًا غير مباشر فيما

هو فيه، فقد ظللت أتخبط تتجاذبني يد الحياة القاسية، بعدما أنبني أب قاس على تركي إياه وحيدًا يزرع أرضه في البلد، رافعًا يده إلى السماء كل حين بالدعاء عليّ ألا يتحقق لي أمل، يدعو عليّ ليضغط عليّ حتى أعود إليه صاغرًا معتذرًا معاونًا له في الأرض بعد فترة عملي الصباحية في مدرسة القرية مدرسًا للغة الانجليزية كما كان يرجو ويخطط، لكنه خفض يديه من السماء يومًا فجأة في أرضه ممسكًا بقلبه الذي ظل يدق لسبعين عامًا ثقيلة، وكانت تلك آخر آلامه.

ومكثت أردد:

- يا رب أنا راض عن ابني، لن أفعل فيه ما فعل أبي في بدعوته المستجابة، رغم أنه لم يستأذني في النزول، ولم يرسل لي مثلما أرسل لأمه رسالة اعتذار وطمأنة.

وظللت أكررها مهمومًا:

- يا ابني.. رد، كم أنني حزين بسببك وقلق عليك، لقد حلمت بهذه اللحظة، لأكون أنا لا أنت فيها، أكون أنا فيها من أجلك أنت، ورأيت من بعيد لوحة بعرض الكوبري العلوي (من أجلك أنت) وسنبلة خضراء تشق لوحة تحتها عبارة الحزب الوطني الديمقراطي، لقد استسلمت لليأس بعدما نجح الرئيس في انتخابات ٢٠٠٥ وقررت أنه بالفعل كفاية، يكفي هؤلاء القوم -قومي- ما قدمته لهم من أعصابي وأحبال صوتي وضغط دمي الذي ارتفع بسبب انخفاض حميتهم، قومنا خذلوني وأتعبوك فيما هو آت من مستقبلك، كم

هى قاسية أيامك المقبلة، كم هو ثقيل ومدين ميراثك منا، رغم الشقة والسيارة والشاليه والمدفن.

كنت وما زلت أخشى عليك أن تموت ياابنى برصاص رجال ابن الرئيس؟ أيدرى هذا اللص ما يمكننى أن أفعله به يومها؟

لقد جعل الرئيس البلاد كلها من أجل ابنه، وأنا نذرت ما مضى من عمرى من أجلك أنت أيضًا، وابنه ليس أهم منك، ابنه يكرس عمره للخراب ومن أجل هيمنته وأنت تعرض عمرك للخطر من أجل بلادك.

الطريق كان شبه مشلول أعلى كوبرى "أكتوبر"، واللعنات تنهال من أفواه سائقى السيارت المعطرين، على أولئك المعتوهين الذين احتلوا ميدان التحرير، وترجل كثير منهم مستندًا إلى سيارته ليقوم باتصالات بذويه، وتمنيت لو كنت أستطيع ترك السيارة أعلى الكوبرى والقفز من فوقه للشارع لأجرى ناحية الميدان الذى لا يبعد سوى كيلومترين، فقط، لكن الشلل الذى أصاب البلاد فى هذا اليوم، لم يكن يمكن أن يتجاوزه سوى تحرك بلا عقل.

(٥)

يزغرد قلبى وأنا أرى الآلاف لا يزالون يتدفقون للميدان من ناحية كوبرى قصر النيل، بعد تفتيشهم من قبل ضباط القوات المسلحة المرابضين عند مدخل الميدان مواجهين لأسدى قصر النيل، وشباب ليسوا مثلنا ونحن شباب، يستقبلون القادمين مرحبين ضاربين الدفوف والطبول:

- مرحب مرحب بالأبطال.. مرحب مرحب بالثوار.

مشهد لم أكن أتخيله فى أحلى أحلامى، القوم يزيد إصرارهم يومًا عن يوم، حتى بعد مضى ١٨ يومًا على اندلاع المظاهرات، ولو تخيلته ما تخليت عن عزيمتى القديمة، وما كنت سأقوم -مساء ٢٥ يناير- بإرسال رسالة لابنى أطلب منه فيها المجىء إلى حيث مقهى "التكعيبة" الواقعة فى شارع "شمبليون" المفضى إلى الميدان، حينما

أرسل لى رسالة يعتذر لى فيها بحجة أنه يعتنى بزميل له مصاب بهراوة فى رأسه .

يومها أرسلت له رسالة أخرى محملة بإلحاح ووعد منى بعدم إجباره على شيء ، وأننى سأظل أنتظره فى مقهى التعكيبة ، ولن أغادر حتى يأتى ، كنت أوقن أنه سيأتى ، ثم عاودت الاتصال بـ"منيب" لترك كل ما فى يده والمجيء لإنقاذ ابنى معى ، عندما لم يرد هو الآخر أرسلت له رسالة بضرورة المجيء ، هو الوحيد الأقدر على تثبيط الهمم وإخماد الثورات فى النفوس الفوارة ، آمنت بذلك عندما أقنعنى قديمًا بعدم إظهار الغضب تجاه "منعم" لكى نكسبه ، ليوافق "منعم" على انتقالنا معه من شقة "أبو أتاتة" إلى شقة خالية عثر عليها بعد بحث طويل فى العمرانية ، منطقة أرقى وشقة أوسع ، ولولا قدرات "منيب" على الإقناع لكنت قد قررت أن أثور على كل قيود "منعم" وأوامره ، والتى تبدأ مع بداية اليوم : نستيقظ معه إذا استيقظ بسبب عنفوان صخبه الصباحى ، لكننا يجب أن نمشى على أطراف أصابعنا إذا استيقظنا قبله حتى لا نزعج جنابه ، نطهى الطعام قبل أن يأتى بنصف ساعة لا تزيد ولا تنقص ، حتى يكون ساخنًا بما يكفى لمتعة الأكل ، ثم ممنوع منعًا باتًا وضع أى ملح فى الطعام لأنه خطر على مرضى الكبد ، حيث يظن "منعم" نفسه أحدهم ، أما قائمة الممنوعات المسموعة فى راديو الغرفة ، فهى تشمل كل شيء ما عدا كلام الله منطلقًا من إذاعة القرآن الكريم ، حرام كما كان يرى "منعم" ، أو بالأحرى كما يرى الأمير المباشر له فى الجماعة الإسلامية .

- "ناقص يمارس معنا الجنس، ماهو متجوزنا".

قلتها وقتها لـ"منيب" بعد أن تلبسني و"منيب" فعلا شعور بأننا زوجتا الأخ "منعم"، وقلت ساخراً إنني سأخبره برغبتنا المشتركة في الانفصال، أقصد أن يتحمل كل منا نفسه فيطهو لنفسه طعامه، ويكف عن التدخل في حريتنا الشخصية.

- بس ده صعب يا عم.

قالها لي "منيب" مستكيناً ثم أردف:

- بص، إحنا نبين له زعلنا بس، ده مهما كان أكبرنا سناً ومقاماً.

ثم ظل يحاول أن يقنعني بكلام كثير لم يدخل في روعي منه سوى موضوع شقة العمرانية المرتقبة، وطرحت يومها منطقاً بدا لي أنه لم يفهمه أو أنه فهمه، ولكنه استنكره، فيما كانت نظرتي حالمة وكأنما أذيع اكتشافاً:

- عارف يا "منيب" إن الشقة دي هي تلخيص لمصر، أخدها الأول العثمانيين، الدكتور "عثمان" والمهندس "عثمان"، وبعدين جه عليهم بتوع الحركات الإسلامية بيفرضوا عليها سيطرتهم، زي ما بيعمل "منعم" كده، وهي دلوقتي مملوكة لـ"علي" عضو الحزب الوطني، وانا وانت المواطنين، واحد يساري معارض اللي هو أنا، وواحد مالوش ف حاجة اللي هو انت.. وفي النهاية محصلين بعض، لا حول لنا ولا قوة.

لم يكترث يومها "منيب" لكلامي، رغم ما فيه من نقد ساخر منه، غير أنه بشرني بعدها بيومين بأن "منعم" وقع عقد إيجار شقة

"العمرانية" واندهشت جداً، أول مرة تلك التى يوقّع فيها صاحب شقة مفروشة عقد إيجار مفروش لمستأجرين مؤقتين، كل الشقق المفروشة التى سكنا بها بداية من "كوبرى الخشب" ومروراً بـ"بين السرايات" وانتهاء بـ"أبو أتاتة" ، كلها نقيم بها تحت رضا صاحب البيت، يطردنا منها وقتما يشاء، أى إذا اشتكت زوجته أو ابنته من قلة أدب هؤلاء الشباب.

وكانت الشقة الجديدة بهية حقًّا وبهيجة، لكنها كانت ضيقة: غرفة داخلية ثم ممر متصل بصالة يقسمها نصفين ستارة يتحول جزء منها إلى مدخل لو أسدلت تلك الستارة.

واختار لى "منعم" المبيت فى الطرف الأخير من الصالة على كنبة بلدى قديمة بجوار البلكونة، فيما اختار هو الغرفة الداخلية -ذات السريرين الكبيرين- له ولـ"منيب" ، ثم انضم إليهما فى الغرفة شقيقا "منعم" اللذان يعملان طوال الليل بائعين فى سوبر ماركت، وبذلك -كما ارتأى "منعم"- سيخففان من ثقل الإيجار عندما يتوزع بالتساوى على الجميع، ثم إنهما سيناما بالنهار على نفس سريرى "منعم" و"منيب" بينما الاثنان اللذان يناماان فترة ليلية، يكونان فى أشغالهما.

فى البلكونة، شكا لى "منيب" من أعباء العمل الجديد فى التليفزيون، وشكوت له من الضغط العصبى الذى يسببه لى احتمال متطلبات "منعم"، وقلت له إنه لا يشارك فى أى عمل بالشقة، لا طبيخ ولا غسيل أطباق من بقايا الأكل ولا كنس ولا إحضار الخضار،

مكتفيًا بأن إخوته يقومون بمهامه، أى أن أعباء المعيشة بالشقة تتوزع على ثلاثة: أنا و"منيب" و"منعم وشركاه".

اكتفى "منيب" بهز رأسه فى أسى كعادته، بما يعنى اتفاقه معى تمامًا، وقلت لنفسى إننى سأتخذ هذه المرة الموقف الذى يجب علىّ اتخاذه دون تردد، وسيتبعنى "منيب"، وبدأت بالانسحاب من أية مشاركة فى أعمال الشقة مكتفيًا بالمترين المربعين اللذين يخصاننى فى الشقة، بجوار البلكونة، من أجل الضغط حتى يجرى توزيع الأعباء بشكل عادل على الجميع، مع مراعاة الحريات الشخصية فى الطعام والشراب والموسيقى.

رفض "منعم" جملة وتفصيلاً كل طلباتى، وأبلغنى عبر شقيقه الأوسط الذى كان زميلاً لى ولـ"منيب" بالجامعة، بأننى شخص غير مرغوب فى وجوده بالشقة، فتمسكت بحقى فى البقاء بها ما دمت منتظمًا فى دفع الإيجار، وشرحت لأخيه أن مسألة توقيع "منعم" على عقد الإيجار منفردًا، لا يعنى حقًّا إضافيًّا له يميزه عنّا، هو مجرد إيجار شكلى، أما العرف، وأما أمام الله، فالحق أبلج، وبدا لى أن أخاه لم يفهم، ثم تدهورت الأمور، ورفض "منعم" تسلم الإيجار منى، كالمعتاد عندما يجمع من كل واحد منّا نصيبه من الإيجار ليسلمه لصاحب البيت، رفض هذه المرة فذهبت لصاحب البيت وسلمته نصيبى من إيجار الشقة قبل موعده بأسبوع ففرح وأخذه.

ليلتها جاء "منعم" مبكرًا من عمله على غير العادة، ودخل غرفته متجاهلاً إياى، وسمعت همهماته الغاضبة مع إخويه اللذين لم يكن قد

حان بعد موعد ذهابهما لعملهما فى السوبر ماركت، ثم جاءنى صوت أخيه ورفيقى القديم بالجامعة مناديًا لى، وبمجرد أن دخلت دفعنى "منعم" ناحية الحائط، ثم هجم علىّ ممسكًا عنقى الضئيل بكفيه وضغط بعنف، أحاول أن أنزع كفى "منعم" دون جدوى، ولمحت بعينى الجاحظتين شقيقه رفيق الجامعة الذى نادانى قبل قليل، يولى وجهه بعيدًا عنّا، وشقيقه الأصغر يقف خلف "منعم" فى تأهب:

- هتمشى ولا نرميك بشنطتك من البلكونة؟

وأنا أهبط درج السلم حاملاً حقيبة ملابسى القديمة وكتبى فوق ظهرى، طفرت من عينى دمعة مالحة، وعدت بلا مأوى أخطو على الأرض متثاقلاً مثل دابة ضئيلة ضالة.

ثبت هذا المشهد طويلاً فى مخيلتى، وظللت أتذكره كانما أحدق فى شريط سينما يمر أمام ناظرى، كلما اندلع خلاف مع زوجتى العفيفة العنيفة، لأجد منها ما لا يحتمله زوج، ولألمح فى عينى ابنى الوحيد نظرة احترت فى تفسيرها، نظرة محايدة، وربما يخفى عنى -أدبًا- نظرة احتقار واستصغار، أحاول كثيراً فهمها، فلا هى مثل نظرة شقيق "منعم" الأصغر المتحفزة للقتال متضامنا مع شقيقه، ولا هى مثل نظرة زميل الجامعة، شقيق "منعم" الأوسط الحائرة، وكنت أخشى أن تطردنى هى أمام أولادى كما تهددنى دائما بصوت عال يتناهى لأسماعهم بالتأكيد، مثلما فعل "منعم" بمعاونة إخوته، ومثلما فعلها رئيس الجامعة مجاملة لضابط أمن الدولة الذى دخل محاضرتى بلا استئذان، وإذا طردتنى زوجتى، كيف يمكننى أن أرفع

عـينى فى عـينى ابنى بعدها ، ما أجملهما عيناه المعبرتان عما بداخله ، الثاقبتان لما بداخلى ، وما كان أجمل خطوته الواثقة الشابة الطائرة على الأرض كأنما لا تلامسها ، وهو يلوح من بعيد عصر ٢٥ يناير قادماً باتجاه المقهى ، هو امتدادى الدنيوى الذى صاغته يد حكيم قدير ، ليمنحنى معنى أجمل لحياتى ، كان يتهادى نحوى وأنا جالس منتظراً إياه على المقهى ، اصطنعت التجهم رغم فرح فؤادى بمرآه سليماً معافى ، يسلم علىّ فى ثقة وتواضع ، رغم أنه يعلم أن ما يفعله مخالفة ، فإن فى عينيه إيماناً ويقيناً بأن ما يفعله صواب ، من أين جاء هذا الفتى بكل هذا الوجدان الراسخ وأنا الذى لم أورثه سوى الضآلة والضلالة واللاثبات ، وميوعة الأفكار وسيولة المواقف ؟

أشرت له بالجلوس ، واتصلت بأمه أطمئنها فقالت لى إنه لا يكف عن إرسال الرسائل لها ليطمئنها على نفسه هو الآخر ، لكنه لا يريد أن يرد على اتصالها لئلا تعنفه وتأمره بما سيرفضه ، وطلبت هى أن تسمع صوته وتكلمه فدفعت بجهازى المحمول إليه ، وتناهى لسمعى صوتها الصارخ فيه ، وهو يحاول أن يهدئها ، وفى أثناء ذلك أخذت بلا استئذان منه جهازه المحمول وأخذت أقلب فيه ، داهمنى فضول لقراءة رسائله لأمه ، ووجدتها :

– أحبك يا أمى ، ومصر هى أمى زيك بالظبط ، ويا بخت من كان له أُمّين .

ثم يرفق الرسالة بوجه ضاحك .

ورسالة ثانية :

– أنا بخير يا أغلى ما عندى، بس مصر مش بخير، ترضى لما تكونى عيانة، بعد الشر عليكى، وتندهى عليّا ما تلاقنيش جنبك.

وثالثة:

– عمر الشقى بقى، ما تقلقيش عليّا، لسه كنت واقف جنب ظابط أمن مركزى وقلت له اضربونا بشويش، وجنبه عسكرى غلبان دعا لنا يا أمى، ينفع الغريب يدعى لنا وانتى لأ؟

طفرت من عينى دمعة مالحة ذات مذاق مثل تلك التى تذوقتها يوم طردنى ذليلاً "منعم" وأخوته، ورئيس الجامعة وضابطه، فحجبت عنى رؤية باقى الرسائل، هل طردنى الولد من حياته؟ ولا رسالة واحدة لى تهدئ مخاوفى وقلقى عليه، ولا واحدة مثل تلك التى يرسلها لأمه؟ وأنا الذى اتصلت به مرارًا وأرسلت له رسالة أودعت بها هلعى عليه، ولا رسالة يا ابنى؟ هل تحتقرنى إلى هذه الدرجة؟ هل تَعتبرنى مناضلاً قديمًا متحولاً متخليًّا عن القضية؟

ساعتها هلّ "منيب" من بعيد، وكان هو أملى الأخير فى أن أثنى ابنى عن رأيه، رغم كل شيء، رغم خذلانك لى كل مرة أعلق فيها أملاً عليك يا "منيب"، فإننى أعتبرك من أفضل من عرفت، يكفى أنك لا تؤذينى ولا تخيفينى، فقط ربما أنت بلا فائدة لى تذكر حتى الآن.

لقد ظل "منيب" –منذ سنوات طوال– فى شقة "العمرانية" بعد طردى منها دون أن يتخذ موقفًا او احتجاجًا من أى نوع، ولم يسكن أحد مكانى من بعدى، فقد كان مترين مربعين لكائن بشرى زائد عن

الحاجة دائمًا ، لا يقبل به إلا من يريد يومين لا أكثر للمبيت ، وتزوج "منيب" ابنة عم "منعم" بترشيح منه بعد واقعة طردى بسنوات قليلة .

جلس يكلم ابنى ، فتأملته ساعة ، كان يحاول مثل حكيم إقناع ابنى بخطأ تفكيره ، لأول مرة أدرك أن لـ"منيب" وجهة نظر فيما يجرى حوله ، أعنى وجهة نظر تبدو متسقة ، كنت أعتقد أنه يتحرك فقط بناء على بوصلة المنافع والمضار دون أساس فكرى لما يقول ، نظرة ابنى له تصيبه بالارتباك هو أيضًا ، وأيقنت ساعتها أنه لا فائدة ، لقد أقنعتنى من قبل يا "منيب" لأنى كنت راغبًا فيما أقنعتنى به ، لو كنت أملك ذرة من صلابة ابنى ، ذرة من وجدانه الراسخ ، ربما لكان حالى غير الحال ، ولربما اجتذبتك لمنطقى ومنطقتى يا "منيب" ، أنت انتصرت علىّ دائمًا ، وابنى انتصر عليك بمجرد نظرة وابتسامة ساخرة مقتضبة ، يمنعه أدبه الجم من أن تكون فجة .

ورغم قلقى على ابنى من إصراره على المضى فى طريقه ، فقد نظرت إلى "منيب" نظرة انتصار بزهو المنتقم الذى وجد من ينتصر له بعد طول قهر ، انتصر ابنى على "منيب" .

ما للجمال مشيها وئيداً ! ١٨ يومًا ، انتصر فى بداياتها ابنى هو ورفاقه على الشرطة ظهيرة جمعة الغضب وتدفقوا من كل مكان على ميدان التحرير ، واعتصموا به من يومها ولمدة أسبوعين ، وها هو ابنى يجول فى الميدان محمولاً على أكتاف رفاقه ، يهتف وعينه الباقية تفيض بشغف أبدى لمجد جليل .

والتفت في صبر نافد ناحية جامع "عمر مكرم" : ألا يخف الزحام أبداً أمام حمام الجامع كي أجد فرصة لأتطهر ؟ وكيف يخف والقادمون للميدان لا ينقطعون ؟ منعوني عن التطهر بخذلانهم قبل عشرين عاماً واليوم يمنعونني التطهر بإقدامهم ، لقد أصبحت عالقًا على حدود النجاسة والطهر ، حدود الخلاص والخطيئة ، مشوش الفكر ، فلا طريق للعودة ولا طريقة للتطهر ، العودة لشقتي النائية خطر في ظل انعدام الأمن بعد اختفاء الشرطة ، وربما اختطفني أمن الدولة لإجبار ابني على التراجع ، والذهاب إلى الفيلا القريبة بالقاهرة سيجعلني في مرمى حاسة شم زوجتي التي لن يصعب عليها اكتشاف رائحة عرق "فاتن" المختلط برائحة عطرها الرديء ، كما أن زوجتني ستتركني أدخل الحمام لأغتسل لتبدأ في شم ملابسي ، حتى الداخلية منها . . هل أنزل النيل بعد أن يهبط الليل ويغطي عورتي؟

وكانت تلك أول مرة يخطر على بالي فيها مثل هذا الحل ، وأنا الذي يكره الماء البارد ، ولم أنزل يومًا في حمام سباحة نهاراً ، أفأنزل النيل ليلاً مستتراً بالظلام؟ معقول !

ورأيت مئات من الملتحين في الطوابير أمام المسجد ، وداهمني خاطر ليس هذا وقته أبداً :

هل يطردني هؤلاء الملتحون من حياتهم بمجرد كتابة العقد باسمهم ، مثلما فعل "منعم" لأن العقد كان باسمه؟ أقصد بمجرد كتابة العقد الاجتماعي الذي سنصوغ على أسسه أساس مصر

الجديد، لا تلك التى يسكنها الرئيس، مصر الجديدة حقًا التى تسع الجميع، المؤمن والفاجر، هل يعتبرون الديمقراطية سلمًا يصلون به للحكم ثم يرفسونه بعد صعودهم لئلا يصعد وراءهم أحد؟ ما الذى يمنعهم؟ عهد؟ إيمان؟ رأفة؟ حكمة؟ لقد كان "منعم" وهو يطردنى، تتلبسه كل تلك المعانى، طردنى بلا رحمة ولا تأنيب، وكان مثلهم مؤمنًا ينتمى للجماعة الإسلامية، لن يمنعهم إلا يقظة ساكنى الشقة، أقصد ساكنى الوطن، وحدهم ساكنى الوطن.

لم تبق دمعات مالحة فى المآقى يا "منعم"، فالمقتلة الكبرى تورث الدماء لا الدموع.

(٦)

.

آآآه.. تعبت من السير فى ركاب الشباب خلف ابنى، فجلست على سور صينية الميدان، وتذكرت "أغنية الكعكة الحجرية"، أجمل أشعار الراحل "أمل دنقل" عندى، وحدق عقلى فى البيت القائل: "دفعته يد.. أدخلته يد الله فى التجربة"، هل أدخلتنى يد الله فى التجربة عنوة؟ أم أنه يحاصرنى بخطيئتى ويلفنى فى نجاستى ليلقى بى مثل جيفة فى أقرب حفرة أبدية عما قريب؟

رنين هاتفى لا ينقطع، لا تكف "فاتن" عن الاتصال بى، تريدنى أن أذهب إليها فى الشقة لأنها مرعوبة، وأنا أكرر لها أننى لن أتمكن حتى من الوصول إليها، فبالتأكيد سوف تستوقفنى إحدى عصابات سرقة السيارات وينزلونى من السيارة، ويأخذونها ويمضون، وربما لن يتركوا لى أجرة ميكروباص أذهب به لأى مكان،

وأضيف لها قائلاً إن التحرير هو أكثر الأماكن أمانًا اليوم.

لا تهدأ وتواصل الاتصال، لو رددت على اتصالها، فسوف تكرر نفس الطلب، وحتى لو كانت تواجه كارثة، فماذا عساى أفعل لها وأنا على بعد عدة كليومترات عنها؟

يرن الهاتف مجدداً للمرة الخمسين، لن تتركنى حتى أرد، رددت وبمجرد أن جاءنى صوتها قالت: أنا فى التحرير، إنت فين؟

- إيه؟ إيه اللى جابلك؟

- مش سامعاك من الدوشة، انت عند إيه بالضبط؟

قلت بنفاد صبر وأنا أتلفت لئلا يرانى ابنى:

- عند صينية الميدان.

- أنا كمان عند الصينية

وتلفتٌ باحثًا عنها فى الزحام، وبعد دقائق وجدتها، فارتمت فى حضنى، فأبعدتها مفزوعًا، الكاميرات مسلطة على الميدان يا مجنونة، ربما رأتنى زوجتى وهى تشاهد قناة "الجزيرة".

قالت:

- وحشتنى يا حبيبى، كنت هاموت من الرعب فى الشقة الليالى اللى فاتوا من غيرك.

- طب روحى شقتك دلوقتى حالا.

قالت:

- طيب خلينى معاك شوية، أمال فين الثورة؟

أشرت ناحية الناس وقلت:

- هى دى الثورة.

تلفتت حولها وهى تنثنى تلم ذيل فستانها أسفلها ثم جلست القرفصاء على الأرض، بطريقة ذكرتنى بتلك البيضاء الجميلة التى كانت فى مظاهرة جمعة الغضب ٢٨ يناير، تنثنى لتلقط الحجارة وتعتدل لتلقى بها على جنود الأمن المركزى وهى تهتف فى حرقة وانتقام، وكأنها ذات ثأر شخصى معهم:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

واكتشفت أننى لست وحدى الذى يراقبها خلسة، خوفًا من أن يرانى ابنى الذى يهتف بجوارى:

- الشعب يريد إسقاط النظام

ثم يفشل فى الاندفاع ناحية الصفوف الأولى من المتظاهرين بعدما دفعتنا خراطيم مياه الجنود وقنابلهم المسيلة للدموع إلى الوراء فى ميدان الجيزة، ووجدتنى غير قادر وربما غير راغب فى الهتاف، واحتمينا بمحطة وقود نغسل بخراطيمها وجوهنا المعفرة بالغاز والتراب، متجنبين -وفق نصائح التوانسة لنا- أن نغسل أعيننا بالمياه حتى لا تؤلمنا، واكتفينا بغسلها بالكولا وتدليكها بالخل بعد شم البصل، كما فعل التوانسة.

كانت تنثنى وتعتدل، كأنما ترجم رمز الشيطان فى يوم الحج الأكبر، وعباءتها السوداء التى تكشف عن هويتها الشعبية، تحتضن أيضًا جسدًا فائرًا مكتنزًا، تبرز استدارته وتضاريسه البضة فى انثناءتها المثيرة، وتفيض جاذبيتها الشاهقة كبركان عندما تنتصب،

ثم تنحسر أكمام العباءة عن بياض عال لذراعها الممتدة لأعلى بطوبة، وينحسر ذيل العباءة عن بياض لساقيها، عميق متدفق كالشلال، وهتفت بها لنفسي: بلقيس أنت، أيتها الفائرة بالأنوثة والثورة، ليتنى لم أعلم ولم أدرك، ليتنى كنت -مثلك- ثائراً ثورة عذراء، لكننى مثل كل أولئك المتناثرين حول المتظاهرين، المتترسين بالخفاء، المتمرسين بالسياسة، المدركين لألاعيبها، أصحاب التنظير والتشوير، أعرفهم جميعا، يراقبون بأعين ثعالب ما يجرى، يحافظون على أنفسهم لأنهم يظنون أنفسم رؤوس الثورة ورموزها الذين سيجلسون للتفاوض ويحصدون ثمرة مروية بالدم، كثير من هذه الوجوه أعرفها، رأيتها على سلالم نقابة الصحفيين فى وقفات "كفاية"، وعند الكعكة الحجرية أمام جامعة القاهرة، وبجوار دار القضاء العالى، فى كل تجمع كنا نحتشد فيه -كنخبة سياسية- نهتف عسى أن يقع شىء ما مستحيل، وأعين الشعب -الثائر اليوم- كانت وقتها تنظر لنا فى استخفاف وإشفاق ويأس ولوم.

جمعة الغضب النبيل، يوم تأملته وتأملت صاحبة العباءة كنت فَرِحًا، نعم، لكنها فرحة مكسورة، مبتورة، مثل فرحة امرأة انتظرت طويلاً ليلة عرسها ودُخلتها، فلما جاءتها، كانت قد انقطع الطمث عندها، وتجعّد جلدها، وانطفأت روحها، غير قادرة على الصراخ من لذة المعاشرة الأولى، لكنك عذراء الثورة أنت، بلقيس التى تكشف عن ساقيها فى بلاط صاحب الجلالة الحكيم، وقد جىء لك بعرشك، فاجلسى عليه يا امرأة، هو لك، فرحك وفرحتك.

جمعة الغضب النبيل، يوم أفلت ابنى منى ناحية قوات الأمن ليرجمهم، هل أتيت لأحرسه؟ وساءلت نفسى فى جزع:

هل مكثت معه خارج البيت أربعة أيام منذ ٢٥ يناير وحتى ٢٨ يناير -جمعة الغضب- لكى أحرسه فقط؟ أمه أخبرتنى -كما توقع ابنى- أن ضباط مباحث أمن الدولة لا يكفون عن السؤال عنه كل عدة ساعات، فاصطحبته متنقلاً معه بنجاستى بين بيوت أصدقائه، واستحييت أن أطلب أن أغتسل فى بيت أحدهم، وهم لم يطلبوا منا ذلك رغم رائحتنا الطافحة بالنتانة.

ودق قلبى فى قلق عنيف وهو بعيد عنى بعدما أفلت منى، وقالت لى هواجسى إنه ليس بخير، ولمحته من بعيد، فاقتربت منه وأمسكت به، وقررت هذه المرة أن أحجزه فى مؤخرة صفوف المتظاهرين، بعدما أقنعته بأننا يمكننا أن نؤدى دورنا تجاه البلاد بتقديم الكولا والخل والبصل للمتظاهرين لكى يغسلوا بها أعينهم لإزالة أثر قنابل الغاز، وأخذته من يده ومشينا ناحية محل يبيع السجائر والمثلجات والمكالمات للمتظاهرين، واشتريت من هناك عدة زجاجات كولا كبيرة، وأخذنى هو من يدى وهرول بى ناحية المتظاهرين الذين بدأت معدلات الإغماء تتزايد بينهم، ثم ظهر مصابون، وسمعنا عن شهيد، وقرأت الاندفاع فى عينى ابنى، فاصطحبته مجدداً لشراء المزيد من الكولا، فوجدنا البائع يقدم صناديق الكولا الفارغة للمتظاهرين مجانًا طالبًا منهم بأن تكون درعهم إزاء الضرب العنيف بالخرطوش وقنابل الصوت والغاز، وقدم

كذلك زجاجات الكولا الفارغة شارحًا كخبير أنها لو جرى ملؤها بالبنزين من المحطة القريبة، ووضع فتيل مشتعل بها، فسوف تتحول إلى قنبلة صغيرة لكنها مؤثرة، تسمى المولوتوف.

وحمل ابنى صندوقين فارغين بمفرده، وهو الضئيل الضعيف، وهرول بهما ناحية المتظاهرين، أحاول أن ألحق به.

اختفى فاضطربت، ماذا سأقول لأمه، غفلت عنه للحظة؟ بينما لم أغفل عن أنثى فاتنة يا زوجتى العزيزة؟ أنثى ثائرة فائرة جذبتنى لأنك غير مشبعة لى، لأنك محتكرة لى، لأنك محتقرة لى؟ أما هى ففاتنة مثل "فاتن" التى كانت وقتها مرعوبة في شقتي، تعيش على بعض الطعام الموجود فى ثلاجتى، وتتصل بى -قبل قطع السلطات للاتصالات- فى ذعر راجية منى أن آتى لآخذها، كيف وابنى معى، وأنت يا زوجتى ملهوفة على ابنك الذى عاد لى بعد اختفائه عصر تلك الجمعة متسنداً على اثنين من الشباب، تنهمر الدماء من عينه التى فقأتها شظية الشرطة.

هى اللحظة الفارقة الغارقة، المطبقة فى الصمت والذهول، التى سكت العالم فيها من حولى، صَمَت صوت قنابل الصوت وراحت رائحة قنابل الغاز، كأنما توقفت البنادق عن الضرب، وكف المتظاهرون عن الهتاف، لقد سكن العالم لثوان، انحدرت خلالها دمعة مالحة على أخاديد خدى، أعرف مذاقها الذى تجرعته مراراً، كبرت مائة عام فجأة، ولطمنى على وجهى "منعم" وزوجتى وضابط أمن الدولة ورئيس الجامعة، يريدون طردى من عوالمهم الرديئة،

يصوبون الآن رصاصة ناحية عين الحلم، يفقأون عين المستقبل، وانكفأت على الأرض دافعًا الجميع جانبًا هاتفًا فيهم:

- أنا أبوه.

وجذبني بعضهم:

- سيب الدكتور يشوف شغله يا حاج.

وبعدما قام طبيب متطوع بتضميد عين ابني الذى تمدد على عشب حديقة ميدان "الجيزة"، انتصب ابني واقفًا مجددًا مثل عمود نار، ومضى مثل فهد، أسابقه لوجهته ناحية تشكيلات الأمن المركزى، لا أعبأ بنجاستي، ولا بوظيفتى، ولا بشهوتى، ولا بخوفى على ابنى الذى ارتمى على الجنود بعينه الواحدة فتفرقوا -يا للغرابة!- ذات اليمين وذات اليسار، وكنت خلفه أحمى ظهره وحولنا متظاهرون كثيرون ينتزعون الدروع والخوذات وبنادق الخرطوش ومدافع القنابل، والجنود يتفرقون، وأنا أتحرر، أتحرر، الآن أتحرر، وانتزعت عصا جندى ولوحت بها بعنفوان فى وجوههم فتراجعوا، أنا أتحرر، أتقدم ويتراجعون، أطاردهم وأطردهم، أطردهم وأتحرر، وكانت البيضاء ذات العباءة على بعد مترين منى، تقذفهم بالطوب والتراب، وكان ابنى بعينه الواحدة يصرخ فى وجوههم، وعلا الهتاف مجددًا فى السماوات:

- الشعب يريد اسقاط النظام.

وانا ألوح بالعصا فى وجوههم دون هتاف مثل أخرس ينفجر غضبه فى حركاته العصبية وصرخاته العفية، والبيضاء ذات

العباءة، لا تزال تفاصيل قدها المتماوج الممتلئ قليلا تبرز وهى تنثنى لتلتقط قطع الأحجار ثم تنتصب لتلقيها، تغيب وتأتى بين الجموع المحتشدة، فتلفت أنظارنا جميعًا لها، بعباءتها السوداء الضيقة، وخصلات شعرها التى انسدلت قليلاً من تحت الحجاب جراء الجهد الكبير، وبدت عيناها حمراوين وجميلتين أيضًا من قسوة الغازات المسيلة للدموع التى أطلقها الجنود.

وعندما اشتط الجنود فى الضرب، واشتد ضغط الجماهير على الجنود المتمترسين وراء سياراتهم وتحت خوذاتهم، انهاروا وفروا، ثم تجمعوا عند عرباتهم الكئيبة، واستقلوها وهربت السيارات وبعضهم يحاول اللحاق بها، فيفشل ويخلع ملابسه ويستسلم، أحدهم ضربه متظاهرون وحماه آخرون.

انفتح الطريق، لا أحد أمامنا، وتسلق ابنى سور ميدان الجيزة وهتف مثل زعيم أسطورى خرج من كتب التاريخ:

– ع التحرير.. ع التحرير.

وأشار بيمناه -سلمت يمناه- ناحية الاتجاه المؤدى إلى ميدان "التحرير"، المسافة بعيدة، نصف ساعة من السير على الأقل، واندهشت كيف سنقطعها مشيًا؟

يااااااه، منذ زمن وأنا لم أمش مسافات طويلة، عندما كان آخر أتوبيس لـ"أبوأتاتة" يفوتنى كنت أمشى نصف ساعة على قدمىّ بلا تعب، ويوم جريت خلف آخر أتوبيس وتعثرت فانكفأت على وجهى فى مياه مجار كانت قد طفحت من بالوعة قريبة، مسحت

وجهي بورقة جرائد كانت ملقاة في الشارع، ونظرت في المانشيت فقرأت: الرئيس يفتتح محطة للصرف الصحي، فمشيت نصف ساعة في منتصف الليل، من وسط البلد مارًا بميدان التحرير إلى "أبوأتاتة"، فوجدت المهندس "عثمان" المنتمي للإخوان المسلمين يتوضأ ليصلي قيام الليل، ونصحني بالاغتسال بدلا من الاكتفاء بالوضوء، لأن ما غمرني من نجاسة ربما يكون قد تسرب إلى ما تحت ملابسي، وكانت تلك أول مرة أغتسل لأن الأتوبيس فاتني وليس لأنني ركبت الأتوبيس.

جمعة الغضب الفاتحة، كانت مثل برق يضيء عتمة الطريق، والثواني التي وقفت خلالها أفكر في صعوبة المشي كل هذه المسافة نحو ميدان التحرير، كما أشار ابني، كانت كفيلة بأن تجعل المتظاهرين يسبقونني بأمتار: ابني والبيضاء ذات العباءة السوداء، وكسير بعكازين، وعجوز محني الظهر، وجالس على كرسيه المتحرك تدفعه من تبدو أنها ابنته وحولهم عشرات الآف يمثلون كل طبقات الشعب، وملتح شاب يدعو الله على الظالمين وأنا أربت على كتفه موافقًا.

وحتى لو لم يكن كل هؤلاء سائرين، هل كنت سأترك ابني يمضي بدوني؟

وهرولت ناحية مقدمة المظاهرة، وبلغت ابني وقلت له إنني أخشى أن يكون انسحاب الأمن كمينًا، وكان في كلامي نبرة حكيم خبير بمسائل السياسة وألاعيب الأمن، لكن ابني ربت على كتفي

وطمأنني، لم يكن هناك من يبلغه بالتأكيد أن الطريق آمن، لأن الاتصالات المحمولة مقطوعة، كل ما كانت هنالك دراجات بخارية تروح وتجيء، أحيانًا تمضي بطيئة عندما يكون عليها مصابون، وأحيانًا تمرق كالبرق، هل كانت تحمل تكليفات لقيادات المظاهرات من قيادات تنظيمات سياسية؟

كان الشباب ينظرون للبيوت ويشيرون للشرفات ويهتفون:

- يا أهالينا انضموا لينا.

وكانت الشرفات تضحك لنا وكانت البيوت تربت على أكتافنا، وتهتف معنا وتشير إلينا بعلامات النصر، كانت مصر تزحف على الأرض وتنظر من السماء، ويردد هتافنا كل حجر في كل مبنى من كل مكان، العيون التي طالما نظرت لي بإشفاق وسخرية، الآن تفيض فرحا، دفعت أنا ثمن فرحتها من قبل من وقتي وأعصابي، ودفعتها يوم جمعة الغضب من عين ابني ثمنًا، والأعداد تتزايد فتبدو مثل ثعبان ألعاب الكمبيوتر، كلما مضى يلتهم نقاطًا يزداد طولاً، ونظرت خلفي فبدت المظاهرة بلا نهاية، مررنا على كنيسة إنجيلية بشارع مراد فتغير الهتاف:

- تحيا مصر.. يحيا شعب مصر.

ومشت الجموع بالآلاف، وتقاطروا من كل مكان، وبانت صاحبة العباءة بينهم واتجهت أنظار كثيرة نحوها، وهي لا تلتفت لأحد، وكأنما وراءها واجب ثأر عظيم تريد أن تنهيه، هل اغتصبها أحد الضباط في مكتبه؟

لم تستجب للمعاكسات القليلة المرحة التى تلقتها من شبان صغار على وجوههم دماء وفى رؤسهم جروح، وهمت بالجلوس لكى ترتاح قليلاً من المجهود الجبار الذى بذلته، فانثنت تلم ذيل فستانها لتجلس على الرصيف فى وضع القرفصاء مثل "فاتن" التى استقرت أمامى فى وضع القرفصاء وسط صينية الميدان وجذبتنى للأرض لأجلس بجوارها فأشرت لها ناحية ابنى:

- ده ابنى يا "فاتن"، شايفاه؟

وبحثت عنه "فاتن" بعينين حائرتين يملؤهما الفضول والمجاملة فأردفت:

- اللى الناس شايلينه ده يا "فاتن".. اللى بيهتف هناك ده.

رأته هى:

- أبو عين واحدة ده؟

انغرست كلمتها الموجعة فى قلبى فبكيت:

- أنا السبب، غفلت عنه.

- يا خويا ده مكتوب ونصيب.

ثم تأملته هى مجدداً:

- احمد ربنا إنه بصحته، غيره مات.

- أيوه، شلتهم بإيدى دى يا "فاتن"، شباب زى الأسود، كانوا بيرموا نفسهم على حشود الأمن، ويقفوا قدام مدرعات الشرطة.

وسرحت تنهمر فى عقلى آيات الإعجاز التى رأيتها بعينى، وسجلتها كاميرات المتظاهرين.

وحكيت لها :

ومررنا على كوبرى الجامعة الذى تطل عليه سفارة إسرائيل، فأومأ متظاهر بجانبى لصاحبه، فرد عليه :

دورها جاى.. مش دلوقتى.

ومررنا على مديرية أمن الجيزة فلوح لنا بعلامة النصر جنود يحتشدون فوق مبناها كأنهم أسرى حرب يطلون على الحرية، والضباط ينظرون إلينا من نوافذ المبنى وابتسامة غامضة ترف على أفواههم فتطير النجوم والنسور والدبابير فى مرح محلقة حولهم.

يومها جنحت ناحية محل مثلجات وعصائر فاتصلت بهاتف منزلي، وطمأنت زوجتى عليّ، وقبل أن أكمل سألتنى عن الولد، فطمأنتها وأنا أقسم كاذبًا ثلاث مرات بالطلاق إنه بخير ولم يمسسه سوء، وأنى أحرسه كظله، وقالت لى زوجتى إنها لا تطمئن عليه أبداً وهو معى منذ أن كان صغيراً، وقلت لها إنه لا فائدة منها، ستظل كما هى، واشتريت زجاجات مياه وكولا وعصائر، وأخذت أوزعها على المتظاهرين من حولي، وهم يشتعلون بالهتاف :

- الشعب يريد إسقاط النظام.

وكنت لا أزال غير راغب فى الهتاف، لم أهتف حتى عندما التحمت معنا الحشود القادمة من المهندسين مع تلك القادمة من بولاق عند ميدان الجلاء، وانفجر هدير مئات الآلاف من الحناجر باستثناء حنجرتى، كان يغمرنى إحساس بأنى من السابقين الأولين الذين سددوا ما عليهم من دين الهتافات تجاه الوطن من قبل، حينما

كانت الحناجر تتحرج عن ذكر النظام بسوء، وتتحشرج فيها الهتافات المناوئة للرئيس، كنت أنا أهتف ثم أصلى فى الشوارع بين نحو مائتين من السياسيين، قبل وأثناء ٢٠٠٥، فى حين لم يكن معنا ولا واحد من كل هذه الآلاف الذين صلوا الجمعة والعصر يوم الثامن والعشرين من يناير، ثم جاءونى بطهرهم يلفون نجاستى ويغطون عليها، نعم، تظاهرت بأنى أصلى الجمعة بين الجموع دون وضوء ولا طهر، نعم تظاهرت بالصلاة مثل عشرات من قيادات تلك المظاهرات الذين أعرف أنهم لا يصلّون، بل لا يؤمنون أصلاً بالدين، أو لا يؤمنون بوجود الله أساساً، ومع ذلك وقفوا يصلون صلاة جمعة الغضب بين الجموع فى مسجد الاستقامة بالجيزة، وبمجرد أن انتهينا من الصلاة هتف مصل كان ينهنه باكيًا وهو ساجد بجوارى طالبًا من الله الشهادة:

– الله أكبر ولله الحمد.

فعلمت أن "الإخوان المسلمين" يريدون أن يكونوا أول من ينزع فتيل قنبلة التظاهر وهم يضعون فى نفس الوقت بصمتهم، ربما لأن الدكتور "البرادعى"، العالم العالمى المعروف، والذى دخل مضمار السياسة حديثًا، كان يصلى معنا فى نفس المسجد بعد وصوله من خارج البلاد ليلة جمعة الغضب عندما علم أن الشعب خرج يوم ٢٥ يناير، وفيما يبدو كره الإخوان أن يبرز وحده فى اللقطة الأولى للمشهد، وهو على أية حال، حصل على الدفقة الأولى من خرطوم مياه الأمن المركزى، وخُيّل إلىّ أن جندى الأمن المركزى الذى بدت

سحنته صعيدية يقول له وهو يمسك بمدفع المياه من فوق المدرعة :

- اوعى من طريق الميه يا عم الحج .

لا بد من أنه لم يكن يعرف مكانة الدكتور البرادعي كرئيس سابق لهيئة الطاقة الذرية العالمية، الحاصل على جائزة "نوبل" للسلام، ولم يكن الجندى مدركًا لحصانته، تلك التى أقنعت ابنى بأنها ستحمينا لو وقفنا خلفه، بين كوكبة من الكتاب والمفكرين، لكن الجندى الصعيدى لا يعرف البرادعى، لذلك لم يعطه حصانة من ضربه بالمياه، ورأيت رجال "البرادعي" وشقيقه يحوطونه متجهين ناحية المسجد، ثم اختفى عن المشهد تمامًا ليبقى فى الملحمة وحدهم شباب من عمر ابنى أظهروا أداءً بطوليًّا، يلاعبون الأمن المركزى وكأنهم فريق محترف شغب ومظاهرات، ويدحرجون قنابل الغاز بعيداً عن الجموع وكأنها كرات شراب من تلك التى كنا نلعبها فى الحوارى صغاراً، حتى شقوا الطريق إلى حيث وقفنا يومها فى ميدان الجلاء، ولا بد أن أبطال "بولاق الدكرور" و"المهندسين" من الشباب فعلوا نفس الأمر فى مناطقهم بدون غطاء "البرادعي" الدولى.

لم يستغرق وقوفنا عند صينية ميدان "الجلاء" أكثر من نصف ساعة، ثم تحركنا ناحية كوبرى الجلاء، لأجد عربتين من ناقلات الجند الضخمة وقد استسلمت، واعتلاها الشباب ورفعوا عليها علم مصر وكأنما هي من غنائم العدو، ورأيت ابنى يحشد الناس ناحية ميدان التحرير، فأعطيته جهازى المحمول وطلبت منه أن يصورنى وأنا فوق ناقلة الجند، وصعدت وابتسمت للكاميرا ملوحًا بعلامة النصر، وبعلم مصر .

(٧)

غفت "فاتن" لحظة وأنا أحكى لها عما حدث، وكانت تستند على جذع شجرة صغيرة فى صينية الميدان وأيقظتها مغتاظًا:

– هو أنا باحكيلك حكاية قبل النوم يا حلوة؟

– معلهش يا خويا، أصل المكان هنا مريح ويرد الروح.

يرد الروح، حقًّا يردها، لكنه ابتلع أرواح مئات من خيرة الشباب، من أجل أن يرد روح أمة، ووصلنا إليه بطلوع الروح، وكثيراً ما أحسست طوال الأيام الماضية الطويلة أن أرواحهم ترف حولنا، تلهمنا الصبر والثبات، وتمنحنا نوراً نمشى به فى الأرض مبصرين، وتأملت "فاتن" التى بدت أنها لم تنم منذ عدة ليال:

– شكلك ماكنتيش بتنامى كويس.

– أنام؟ ده المنطقة هناك هس هس، وكل عينى ما تغفل أسمع

ضرب نار، أقوم مفزوعة، ولولا الشباب في المنطقة كانوا بيسهروا في المنطقة ويخبطوا عليّ يسألوني إذا كنت عايزة حاجة و . . .

قاطعتها صارخًا فيها :

- بتقولي إيه؟ شباب المنطقة، هم عرفوا إنك في الشقة إزاي؟

- أصل المية قطعت وخبطت على الشقة اللي جنبنا وطلع ساكنها شباب، طلبت منهم ميه أشرب، فعرفوا إني مو . . .

- ليلتك سودا، إنتي إزاي تعملي كده؟

حاولت "فاتن" أن تبرر لكنني استمررت في تعنيفها، لم يكن الخوف من أن يعرف الجيران بوجودها فقط هو الذي أشعل غضبي، ولكنه أيضًا الذعر من فكرة أن تكون "فاتن" قد استضافت في الشقة شابًّا أو أكثر، بدافع الخوف، وبالمرة لإشباع رغباتها الفجة الوضوح، تبدو تلك المرأة سهلة الاستجابة لأية كلمة لطيفة، وأكلتني الغيرة، وأين يجري ذلك؟ في مملكتي؟ مملكتي التي كنت أريدها طاهرة؟ وخطر لي أنني لم أشك لحظة في زوجتي أم أبنائي، وكيف أءتمن هذه اللعوب على شرفي؟ ولكن ما الذي تغير عندها لكي يجعلني أتساءل؟ أليست هي على ما هي عليه منذ عرفتها، سهلة لا تخفي رغبة؟ أم أنني أنا الذي أصبحت لدي قدرة الرؤية بوضوح، وتقييم الأشياء باستنارة؟

"فاتن" هذه المرأة الفرصة، تبدو الآن مصدرًا للقلق والشك والإزعاج، وتنتابني رغبة كبرى في الذهاب فورًا لشقتي لضبط دليل يحسم موقفي منها، هذه الشكوك غير المبنية على دليل قاطع

وواضح، تعيدنى إلى منطقة اللافعل، فلا أنا قادر على الاستمتاع بها باعتبارها امرأتى، ولا أنا قادر على اجتثاثها من حياتى باعتبارها خائنة، هى بالفعل غير باعثة على الاطمئنان. ولو كانت هناك أخرى مثلها كحالة فريدة مخلصة صالحة للزواج دون إنجاب لطردت "فاتن" حالاً واستبدلتها بها، ولو كانت أقل منها جمالاً وجاذبية، المهم أن تكون من ذلك النوع من النساء الذى يجعلك تنام مطمئناً على وفائها.

ورغم كل ذلك، تمالكت نفسى ولم أصرح لها بشكوكى وهواجسى، وسرت فى وجدانى حالة لامبالاة لأمرها كله، واستغربت من أنى لم أجد فى نفسى رغبة فيها، وطلبت منها أن نسير معًا بعدما طيبت خاطرها بكلمتين، وكنت أتعمد أن أحتك بها لعل جسمى يفور بالاشتهاء، قاصداً أن تلمس يدى جسدها، لكننى كنت كمثل جوال ملح، رغم أننى منذ ١٨ يومًا لم أمارس الجنس، وأنا رجل لامرأتين، إحداهما زوجتى والأخرى التفتت إلىّ وقد تقلصت ملامحها:

- ريحتك فظيعة يا حبيبى.

ضحكت فى حرج مبتعداً قليلا عنها:

- طبعًا، بقالى فى الشارع ١٨ يوم، من ساعة ما كنت معاكى وانا نفسى استحمى.

ضربت صدرها بكفها:

- يا لهوى.. طب ما تروح يا خويا بيتك ولا يلا نروح شقتنا استحمى هناك.

- يا ريت يا "فاتن" يا ريت، بس الواد ابنى مش عايز يتحرك من الميدان إلا بعد ما الريس يغور عن الرئاسة، وأمه كل شوية تتصل بيه على تليفونى علشان تتطمن عليه لما مش بيرد على تليفونها وهو مشغول مع زمايله، وبتوصينى إنه ما يغيبش لحظة عن عينيا، وكمان هو عارف انه لو روّح، أمه وانا هنحتجزه فى البيت.

- بس بيقولوا خلاص الدنيا هديت شوية.

- الخوف ليرجع أنصار الرئيس يضربوا تانى زى ما حصل فى معركة الجمل يوم الأربع قبل اللى فات لما قعدوا يومين بلياليهم يضربوا علينا طوب.

- هو ابنك عينه انصابت فى اليوم ده؟

لا، فى جمعة الغضب ٢٨ يناير، بس فى موقعة الجمل انصاب بطوبة فتحت له دماغه، ونزف حبيبى كتير.

- ربنا يخليهولك يا خويا.

كادت تكمل وصلة دعائها المعتادة فى مثل هذه المواقف، ومر من أمامى رجل يحمل لافتة كتبها بخط يده الردىء:

- دم ابنى فى رقبتك، مش همشى إلا بعد ما انت تمشى.

كان هو، نعم هو، شرطى الآداب الذى ضبطنى و"فاتن" فى السيارة نعبث فى رقاعة، ابنه الوحيد الذى كان يسعى لتعيينه فى شركة الاتصالات، مات!

ورآنا الرجل، وظل ينظر إلينا بعينين تفيضان بحزن العالم، تلك العينان اللتان نظرتا إلينا من قبل ضاحكة مستبشرة مبتزة ساخرة،

وظل يتأملنا وكأنما يتذكرنا، ملامحه غضبى، نعم نحن الزوجان المزيفان العابثان يا رجل الأمن، واقترب:

– ابني مات يا باشمهندس، مات، قتلوه الكلاب وهو ماشي في المظاهرة.. ابني مش هيتعين في حتة، مش هيحلم تاني بحاجة.

وبكى بمرارة، وتمنيت لو أن ابنه عاد حيًا لسعيت له بكل ما أملك لكى أتوسط لتعيينه، وانحدرت دمعة من عينى، تمثلت نفسي مكانه، ونظرت لابني، وبكيت معه مجدداً.

مضى الرجل مبتعداً بلافتته التي كتبها على ورق مقوى، ومعلقًا إياها على صدره، ولمحت بالقرب منه الدكتور "حازم" المستشار في وزارة الاتصالات يمر بجانبه، مرتديًا نظارة شمسية تخفي نصف وجهه ورغم ذلك عرفته، فاتجهت إليه وسلمت عليه، فارتبك، وقلت له إنني لمحت كثيراً من المشاهير والمسؤولين هنا، فابتسم ابتسامة يخفي بها اضطرابه ثم مضى سريعًا وكأنما يهرب مني.

ما هذا؟ لماذا فعل هذا المدعو مستشاراً ذلك؟ هل يظنني هذا المجنون مخبراً يمكن أن أشي به لدى الوزير؟ هل إلى هذا الحد يمكن أن تكون فكرة مثل هذا الشخص عني؟ هذا الـ. .الـ. محدث نضال؟

إنني ومنذ وطئت قدمي الوزارة للعمل في مكتب الوزير، وأنا لا أخفي معارضتي الناعمة للنظام، أيمكن أن يكونوا قد ظنوا بي شراً وأنني من هذا النوع من المخبرين الذين يستدرجون الضحية لكي يفصح عن رأيه ثم يكتبون تقريراً عنه؟ هل لذلك كانوا يتجنبون

المواجهة معى، بل ويسترضينى بعضهم، وأنا الذى كنت أظن ذلك حبًا منهم فىّ؟

آآآآآآه، فهمت، فهمت، يحق لهم بالطبع هذا الظن وأكثر، فالمشهور عنى فى الوزارة أن الذى قام بالتوصية علىّ عند مسؤولى الوزارة، كان زوج ابنة عمتى، ضابط أمن الدولة المسؤول عن النشاط السياسى، وعلاقته جيدة بهم لأن ذلك الضابط كان هو الذى يمرر لهم كل التعيينات التى تتم بالوزارة، وكان فى يده منعها، لذلك لم يتأخر المسؤولون عن تعيينى فى مكتب الوزير عندما طلب منه الضابط ذلك، وكأنهم يقولون له: لكى يطمئن قلبك يا باشا، رجلك فى مكتب الوزير علشان ينقل لك عن قرب كل حاجة.

آآآآه، فهمت، لذلك كان الوزير يحاول الاختفاء من أمامى وهو يصلى فى مكتبه، يظل يتحين الفرصة لكى يصلى دون أن أراه، الآن فهمت، وأنا الذى كلما غلبتنى طبيعتى وتحدثت فى السياسة كمعارض، أجد الجميع يتهربون من الكلام أو يظهرون الولاء المبالغ فيه للقيادة السياسية.

كل هذا التدليل لى، وكل هذا الإقبال علىّ، كان بسبب ظنونكم السيئة أيها الزملاء والرؤساء والمرؤوسين؟ كل هذا بسبب اعتقادكم فى أننى عين لأمن الدولة عليكم؟

وربما ضاعف من هذا الظن الخاطئ، أن زوج ابنة عمتى بالغ فى التوصية علىّ بشكل مفرط، فهو للأمانة كان يشعرنى بشفقته البالغة علىّ وبتعاطفه العميق معى، وكنت أتعاطف معه كذلك، فهو

أيضًا مقيم في شقة زوجته، مثلي، وهو فوق ذلك بلدياتي أيضًا، وكان زميلاً لي بالمدرسة الثانوية، كان طالبًا فاشلاً وكان دائمًا ما يعايره أهله بي، أنا المتفوق عليه، وتفرقت بنا السبل، أنا لكلية الآداب وهو لكلية الشرطة، ثم تجمعنا بالقاهرة مرة أخرى بعد سنوات طويلة من خدمته في الأقاليم.

كان كثيرًا ما يقول لي عندما نلتقي في مناسبات أسرية:

- الناس اللي انت بتقف معاهم دول في المظاهرات، شوية نصابين وعملا عايزين يودوا البلد في داهية، أنا مش هاقدر أعمل لك حاجة، لو اتمسكت معاهم وشرّفت عندنا.

وكنت أجد لذة في أن أتحدث أمامه كلامًا من ذلك الذي يسميه كلام مثقفين معاتيه، وكأنما أستمتع بعدم فهمه لكلامي، لأستدعي ذلك الشعور الدراسي القديم بتفوقي عندما كنا طالبين في المدرسة الثانوية.

وحينما أفلست شركة والد زوجتي عام ٢٠٠٦، وتوليت أنا عملية تصفيتها وتسريح موظفيها، وجدتني سعيدًا لأن جزءًا من دائرة حصار زوجتي المحكم حولي قد انكسر، حتى لو كان ذلك على حساب مستوانا المعيشي المرتفع، فقد كنت أشعر شعور سجين الأشغال الشاقة وأنا أعمل عند والد زوجتي، وأسكن في الفيلا التي أعطاها لابنته، وأستخدم سيارتها، وعندما تحررت بإغلاق الشركة وتصفيتها، لم أجد حرجًا في القول لزوج ابنة عمتي إنني اقتنعت بصحة وجهة نظره حول انعدام جدوى السياسة، وأن السياسة لها

أهلها ، وأن رفاق النضال عملاء ، ولم أمانع فى إبداء تذلل المحتاج أمام زوج ابنة عمتى الذى لم يتوان عن مساعدتى ، ولم يكف عن ذكر مساعدته لى تلك فى كل مناسبة أسرية تجمعنا عندما كان يسألنى بلا مناسبة :

- مرتاح فى الشغل ولا أقرص لك ودن الوزير ؟

كنت أحتمله لأن ذلك أهون كثيراً من يكون كل شيء بيد زوجتى ، لا حرية أبداً ، وكنت أقول له ضاحكًا ضحكة مفتعلة إن ضابطًا زميلاً له كان سببًا فى فصلى من الجامعة ، وأنه -بتعيينى فى مكتب وزير الاتصالات- يصحح خطأ جهازه الأمنى ، لكى أذكّره - خفية- بأننى كنت معيداً ولولاهم لكنت الآن عميدًا فى الجامعة مثلما هو الآن عميد فى أمن الدولة ، ثم أستمر فى ضحكة مفتعلة لا يستجيب لها هو ، ولا يستجيب لها أحد من الحاضرين من العائلة مجاملة له .

ربما يكون مستشار الوزير قد فر من رائحتى لا من سمعتى ؟ أو أنه فرّ من الاثنين معًا ؟ فالشيئان حاضران بقوة ، غير أنى -كالعادة- لم ألحظهما وهما اللصيقان بى ، ولولا أن "فاتن" نبهتنى لبشاعة رائحتى ، لما كنت قد انتبهت لها ، ولولا فرار مستشار الوزير منى ، لما تنبهت لشيء كان شديد الوضوح ، لا يحتاج لتفسير ولا لتأويل : سمعتى المنحطة .

إن عام ٢٠٠٦ ذاك ، كان عامًا فاصلاً فى حياتى ، العام الذى طلقت فيه السياسة ، وانعتقت من القيد الذى يشدنى كعبد لدى

أسرة زوجتى، فقد شهد هذا العام استلامى لعمل جديد لا يديره أبوها، وبعده اقتنيت شقة لا تملكها أسرتها، وكل ذلك بفضل سيادة عميد أمن الدولة المبجل وصاحب شركة العقارات الكريم.. أين هما الآن والثورة مشتعلة بلا توقف لمدة ١٨ يومًا متصلة؟

وخطر لى أن أتقمص دور عميل "مباحث أمن الثورة" لمعرفة أخبار مباحث أمن الدولة، بالاتصال بزوج ابنة عمتى للحصول على معلومات منه أوصلها لشباب الثورة، وخامرنى يقين بأن ذلك من شأنه أن يعيد لى ثقتى بنفسى بأنى أبدًا لم أكن عميلاً لأمن الدولة، ولا رجلاً من رجالها رغم خدمتهم لى، واتصلت بابنة عمتى على هاتفها المحمول فجاءنى صوتها منكسراً حزينًا، تكاد تبكى على زوجها الذى لم يأت للمنزل منذ الخامس والعشرين من يناير، وأنه فقط يتصل بها ليطمئنها عليه ويطمئن على حالها وحال الأولاد، ويشكو لها من أنه لم يغير ملابسه ولم يعرف الماء طريقًا لجسده منذ هذا اليوم، فقد كسر الثوار خط المياه الذاهب للجهاز، وانتابتنى شماتة فيه، ها نحن مجدداً سواء، وامتلأت فخراً بابنى الذى جعلنى وزوج ابنة عمتى سواء، رهائن عفونتنا الراهنة، ورأيت نفسى عميداً بالجامعة مثلما هو عميد بأمن الدولة.

وأبلغت ابنى بأن أمن الدولة لا يزال يعمل، وبكل ما قالته لى ابنة عمتى، فابتسم ابنى ولم يعلق سوى بكلمة واحدة:

– عارفين.

وكانت "فاتن" لا تزال تدندن بهتافات الثوار وهى تبتسم بجوارى، وساورنى قلق بأن زوجتى يمكن أن تهل علينا الآن ببنتيها، لكننى عدت أطمئن نفسى إلى حقيقة أنها لن تأتى لأنها ضد الثورة، الثورة التى جعلت ابنها مجذوباً فى محرابها، وهى لا تكف عن شتيمة أولئك الصبيان قليلى الأصل الذين هانت عليهم عشرة الرجل الكُبَّارة.. الرئيس، ويصرون على إهانته وإخراجه من السلطة، وقالت لى وهى تنتحب باكية ليلة الثلاثاء الماضى عقب خطابه العاطفى:

– الراجل قال إنه هيعمل لكم كل اللى انتوا عايزينه، سيبوه يقعد لسبتمبر، كلها كام شهر ويمشى بكرامته، عايزينه يسيب لكم البلد ليه؟ هى بلدكم لوحدكم، الراجل قال إنه مش هيسيبها، خدمها وهيموت على أرضها.

كانت تحدثنى على الهاتف وابنى يرفع حذاءه أمام شاشة العرض الضخمة المنصوبة بالميدان، والتى تعيد إذاعة خطاب الرئيس العاطفى، وزوجتى لا تزال تطالبنى بأن أجعل ابنها يرد على اتصالها المتكرر، لا يستحق ابنها هذه الأم، وأنا أشجعها على البقاء فى المنزل وعدم النزول للميدان، حتى لا ترى عين ابنها التى أضاعها الرئيس، ولربما فضحتنى وفضحته أمام الحشود فى الميدان، وهى تحتضنه وتعنفه وتشتمه وتلومنى بقلة أدب ورثتها من سلالة أجدادها الباشوات، كما اعتادت أن تعايرنى دائماً مقارنة بين أصلى وأصلها، وعائلتى وعائلتها، لا سيما عندما نكون مسافرين فى

طريق مصر الإسكندرية الزراعى، حيث تشير على امتداد البصر لمساحات شاسعة من الأراضى الزراعية وتقول إنها كانت ملكًا لعائلتها، قبل أن تنتزعها ثورة يوليو "الظالمة".

لو كانت تعى لكنت قد أفهمتها أنه لولا ثورة يوليو لما جاء للحكم هذا الرئيس الذى تحبه هى وتشفق عليه، والذى تفتح وعيى السياسى عليه وهو يخطب أولى خطاباته قائلاً إن الكفن بلا جيوب، وإنه لن يبقى فى الحكم أكثر من دورتين، وأذكر أنه أشار بإصبعيه الوسطى والسبابة تأكيداً على كلامه، ثم رفع باقى أصابعه وثنى الوسطى فقط موجهًا إياها ناحيتنا ونحن لا نشعر لاحقًا.

أما "فاتن"، فهى بلا موقف إلا ما أقوله لها، هى تؤمن بى تماماً، وتدرك أنى أعرف أكثر منها، ولا ترهق ذهنها فى الفهم، مكتفية بخلاصة القول فيمن تثق به، وكانت تثق بالتليفزيون المصرى قبل أن تعرفنى.

وانطلق صوت عبد الحليم حافظ عبر الميكروفون من منصة ائتلاف شباب الثورة:

- "ابنك يقول لك يا بطل هات لى انتصار"

وكان ابنى قد جاء ناحيتى ليطمئن علىّ فدندنت محرفًا كلمات الأغنية:

- أبوك بيقول لك يا بطل هات لى انتصار

وضحكنا متعانقين.

(٨)

تنتابنى قشعريرة عندما يداهمنى خاطر طارئ -للحظة- أن كل ما جرى كان حلمًا ربما أصحو منه على كابوس والرئيس الحالى لا يزال يفتتح مشروعات الصرف الصحى، ووجهى ملوثًا لا يزال بمياه بالوعة انكفأت عليها.

لقد مر ١٨ يومًا على اندلاع الثورة، وهو -الرئيس- مثل كابوس جاثم على الأنفاس لا يريد أن يغادر، وأنا بلا حل لنجاستى، أتظاهر بالصلاة اليوم وكل ماسبق من أيام الثورة: الجمعة الماضية وجمعة الغضب التى انكسرت فيها ذراع الدولة.

وساءلت أكثر من مرة أكثر من شيخ أزهرى موجود معنا بالميدان إذا كان يحل لي الاغتسال تيممًا بالتراب فأكدوا لى جميعا أنه لا يجوز، وقسوة الماء البارد تلغى أصلا فكرة الاغتسال فى النيل ليلا

متدثراً بالليل، وحمامات المسجد مزدحمة وكأنها أيام الحج، وشقق المتعاطفين المساندين للثورة، الموجودة قريباً من الميدان تكفى بالكاد لكى تقضى بها المتظاهرات حاجتهن. واستحمام قيادات الحركات الكبرى.

وألح على ذهنى حل النيل، ومرت من أمامى وجوه أعرفها لقيادات الحركة الشيوعية، وأعرف أن معظمهم لا يصلى، ومن ثم لا حاجة لهم للاغتسال، بل إن كثيراً منهم كان يكره الماء، ويظل بالأسابيع بلا استحمام، حدثتنى نفسى بأننى لو استمررت معهم ولم أتركهم طالبًا فى الجامعة، لما ظل ضميرى يؤرقنى اليوم لعدم صلاتى كل هذه الفترة، وكان رفيقى فى الخلية الشيوعية يقول لى إن اعتناق مبادئ الدين يورث الانقياد والخضوع، فقلت له نعم هو كذلك، لأن ذلك من ضرورات عمارة الأرض واستقرار الحياة فيها، فالدين ضد التمرد، ولا يستقيم عمل إلا مع خضوع من قبل مرؤوسين للرؤساء، لذلك يريدنا الله أن يغرس فينا الخضوع له، ومن ثم الخضوع لكل ذى سلطة، فتسير الحياة وتستقر، على أن يكون الخضوع فى الحق والعدل، والتعاون على البر لا على النهب.

وكان ذلك المنطق فراقًا بينى وبينهم، وكان هذا المنطق أيضًا هو نفسه دافعى للزواج من المرأة التى أحبتنى بجنون، المرأة التى أفقدتنى مذاق الأشياء بخضوعى الدائم لها، فهى صاحبة المأوى والمأكل، وتحينت الثورة عليها، وفعلتها بالتدريج مع "فاتن".

أما أنت يا أيها الرجل الفاسد الذى لا يريد الخروج آمنًا، ولا

يريد فض الاحتقان الذى صنعته يداه، فقد لازمت كل أزماتى، منذ تخرجى من الجامعة عام ١٩٨١، كانت سنة تخرجى من الجامعة هى سنة توليه الرئاسة، وهى سنة طلاقى من الحركة الشيوعية بالجامعة، وهجرى لكل أشعار "أمل دنقل" المحرضة على الفعل، وكل أحاديث الثورة التى لن تجىء.

لقد صار رمزاً لكل انهزاماتى، وكنت أحياناً أقول لنفسى إننى صرت جزءاً منه، وهو بالفعل جزء منى، حتى أننا جميعاً -كشعب- أصبحنا نشبهه، ويبدو أن ذلك مرده أننى حلمت أكثر من مرة -وحلم به غيرى- أنه أبى، فعلاً، ربما لأنه يشبه أبى الذى كان سبباً فيما أنا فيه بسخطه علىّ، وكان ذاك الرجل سبباً فيما أنا عليه من تردٍّ وهوانٍ اجتماعى ونفسى، لكونه رئيساً لى، والفرق هنا أننى أنا الذى لا أرضى عنه، بينما كان هو -يقيناً- راض عنا وعن استسلامنا المهزوم له.

ورغم كل هذا الكره الذى أحمله تجاهه، ارتعبت من الدعوة للزحف إلى القصر الجمهورى فى "مصر الجديدة" التى أطلقها بعض الثوريين أمس، خشيت من مواجهة ما، كنت أخاف أن يطل علينا الرئيس من شرفة القصر ممسكًا بمدفع رشاش ليبدأ مزاد الدم بقتلى أنا، سيعرفنى بالتأكيد، كما أعرفه، سيعرفنى بشبه الملامح بينى وبينه، سيعرفنى بحدسه الداخلى، وهو الذى زارنى فى منامى كثيراً، سيعرفنى بالتأكيد، ويطلق النار علىّ، بينما سيصوب ابنه مدفعه الرشاش ناحية ابنى قاصداً قتله، وتشبثت بابنى مبتهلاً إليه

ألا يذهب، واستجاب ابنى لى لما رأى الدموع فى عينىّ، كنت قد ظننت أنى ودعت الخوف على ابنى للأبد، وكأنى قد نذرته مثلما نذر إبراهيم النبى ابنه إسماعيل امتثالا للرؤية الحقة، نذرته أنا تعويضا عما قصرت فيه، كنت سعيداً به وبنفسى وأنا أسير خلفه فوق كوبرى الجلاء يوم جمعة الغضب، ساعة مررنا بـ"دار الأوبرا" وكنا نغنى، ورغم كثافة الضرب بالقنابل المسيلة للدموع عند مدخل كوبرى قصر النيل، كنا نغنى، ولم أخش على ابنى وهو فى مقدمة الصفوف، واصطف خلق كثير للصلاة، فجلست على الرصيف بجوار رجل بدين بجلباب مقلم، نظر لى بنصف عين وهو يقول ببساطة:

– عينى بتنزف، الظاهر إنى انصبت.. هو حضرتك دكتور؟

وقفت منادياً على طبيب، فجاءنى أحدهم بسرعة، وانكب على المتظاهر ذى الجلباب يعالجه، ورغم ذلك لم أكن قلقًا على ابنى، ووقفت مستندا على سور المدخل المؤدى إلى محطة مترو أنفاق "الأوبرا"، وكان اثنان من المتظاهرين الشباب ممن يبدو عليهم بساطة الحال والفتوة، يتكلمان عما فعلاه طوال اليوم، وكأنما يدفعان نفسيهما للاستمرار فى السير ناحية الميدان، باستدعاء تفاصيل النصر القريب السهل الذى حققوه على الشرطة عند ميدان سفنكس بالمهندسين، حيث جرت عمليات كر وفر بينهم وبين الشرطة، يصعدون لهم أعلى الكوبرى الذى يقطع الميدان، ثم يأتونهم من أسفله، وعندما فرّ الضباط والجنود، عجز ضابط بدين

يحمل رتبة لواء عن الجرى، فتظاهر بالإغماء، وبدافع من الطيبة حاول الشابان إفاقته، فاستمر فى الادعاء، فلطمه أحدهما ضاحكًا، بعدما اكتشفا أنه مدع.

كانا يتحدثان مستندين لسور مدخل المترو، يتضاحكان وكأنهما فى استراحة محاربين، ولاحظا إنصاتى لهما فانتبها وتوقفا، ومضيا بعيدين، هل وشت عيناى بذلك البريق الثعلبى المخيف المنبعث من أعين المخبرين؟ أنا آخر من يجيب على هذا السؤال فى هذا العالم، لأنى لا أرى نفسى فى المرآة.

تذكرتهما جيداً بعد ذلك بساعتين، مساء جمعة الغضب، فرغماً عنى علقت ملامحهما فى عينى، رغم آلاف الملامح التى رأيتها ونحن زاحفون ناحية ميدان التحرير، بعدما انفتح الطريق، وانسحب الجنود إلى داخل الميدان، دقائق وكنا على الناحية الأخرى من الكوبرى، على بعد أمتار قليلة من الميدان، وكأنما الميدان هو دولتنا التى نريد أن نستردها، أو هو قلعتهم التى يدافعون عنها باستماتة، وما بين كر وفر، تناوبنا الهجوم والدفاع على مدى ساعتين، لكنّ ضغطًا فجائيًّا من الجنود دفعنا إلى التفرق ما بين الميدان وكوبرى قصر النيل، وبمرونة لا تناسب سنى قفزت من فوق سور إلى حديقة صغيرة تجاور جامعة الدول العربية، ووجدت جوا مختلفًا: شبابًا وبنات يجلسون متحفزين لمعاودة الهجوم، وكانت تلك المنطقة تضم قبل أيام أيضًا شبابًا وبنات يتبادلون الحب، فتمددت على العشب، وكأنى جندى استطلاع يتخفى كامنًا على

بعد مترين من الشباب، وبدا أنهم يخططون لشيء ما، ونظروا إليّ وتبادلوا نظرات ذات مغزى، ثم انصرفوا، فتذكرت ما فعله الشابان المستريبان فى أمرى عند الأوبرا.

فعلوا نفس الفعل الطاعن فى شرفى الذى قام به الشابان، أتراهم شكُّوا فيّ؟ وخالجنى ظن أصابنى بالغم والهم، وسيكون قاتلاً لى لو أن ابنى يحمل نفس الفكرة عنى، أترى رفقاؤه السياسيون قالوا له: أبوك رجل أمن دولة؟ ترى هل أخفى عنى كل خططه وتحركاته خوفًا منى؟ خوفًا من أن أقوم بالإبلاغ عنه وعن رفاقه كمخبر، وليس خوفًا من أن أردعه كأب؟ أترى نفسى تشى بالخيانة والدناءة، الصفات التى تنفر منى كل شريف؟ مثل رائحتى الطافحة بالعفن؟

ليلتها سار الشباب والبنات مبتعدين، والتفتُ فرأيت شابًّا بهيئة ابنى من الخلف، يمشى بالقرب من الكورنيش فى اتجاه ماسبيرو، فوثبت وجريت ناحيته ولحقت به عند فندق النيل، وأمسكت بكتفه فالتفت لى ولم يكن ابنى، تأسفت له، فقال لى لا بأس لأن كل العيون لا ترى بفعل الدموع المنهمرة بسبب قنابل الغاز، وصدقت على كلامه وسعدت به قليلاً لأنه لم يهرب منى مثل الآخرين، بل كان لطيفًا وودودًا، فمؤكد أنه لم ير فى ملامحى شيئًا يجرح شرفى.

ولم أكد ألتفت خلفى حتى وجدت المئات يعبرونها مندفعين ناحيتى هروبًا من خطر قادم، لقد فصلت الحكومة الكهرباء عن أعمدة الإنارة بالميدان والطرق المؤدية إليه، ولم يبق سوى نور خافت

يتسلل من المبانى المحيطة، وهرولت مع الجموع ووسطها فى اتجاه ماسبيرو شمالاً بمحاذاة شاطئ النيل، وقلت إنه من السهل أن تقوم الشرطة بعمل كماشة علينا من الجانبين، ولم يكد يخطر ببالى ذلك الخطر، حتى وجدت سيارة ضخمة من ناقلات الجند، تجرى بأقصى سرعة فى الاتجاه المعاكس لنا، فتفرقنا، وظننتها تهاجمنا، ولكنها كانت تهرب من المكان، والشباب يضربونها بالطوب والأحجار من الاتجاهين، وهى تترنح هاربة وبدا سائقها مذعوراً لا يألو على شيء سوى الهروب.

فجأة استضاء المكان بنور نار اندلعت فى مبنى قريب، وحملقت فيه مذهولاً وفخوراً، كان المقر الرئيسى للحزب الوطنى، ولمحت الشباب يلوحون لنا من داخله، صرخت من مسافة لا يصل إليهم منها صوتى، أن اخرجوا، وتذكرت آخر مرة سرت خلالها فى مظاهرة حاشدة انتهت بتفريقنا فى نفس هذا المكان أيضاً، وكانت اعتراضًا على غزو أمريكا للعراق منذ عدة سنوات، وتركتنا الشرطة نجوب الشوارع بعشرات الآلاف، وتصديت ساعتها لمحاولة بعض المتظاهرين تحطيم واجهة فندق النيل هيلتون المجاور لمقر الحزب الوطنى، فقالوا لى إنها من ممتلكات اليهود، ولم تفلح محاولاتى فى إثنائهم، واستمروا يقذفون واجهة الفندق بالطوب وكرات النار، وجاءت عربة إطفاء صعد أعلاها فتيان وأضرموا بها النار فى نفس المنطقة، نعم نفس المنطقة التى صرخت فيها مساء جمعة الغضب فى الشباب وهم يتقافزون داخل مبنى الحزب المشتعل، وبدت هيئتى

كمجنون ينادى اللاموجود، كالعجوز على الدراجة منذ ربع قرن، والنيران تندلع فى الطوابق تباعًا، والشباب يحتشدون أكثر بداخله، وسمعنا صوت إطلاق رصاص حى، وقيل لنا أن الذى أطلقه ضابط محاصر، وجاءنا شاب بصندوق من المياه الغازية الخارجة توًّا من الثلاجة، ووزعها علينا وهو يقول:

- غنايم . . غنايم.

وصرخ رجل من نفس سنى:

- حرام، كده حرام، مش من حقنا.

واستمر الشاب يخرج العبوات وهو يوزعها علينا مرددًا وكأنه يغنى:

- غنايم . . غنايم.

وجلست تحت مظلة خشبية مخصصة للعشاق على الكورنيش، وكان عدد من المتظاهرين ممن هم فى سنى يتحدثون ويبتهلون، وبدت لهجة بعضهم ريفية، وقلت -من واقع خبرتى- إنهم من الإخوان المسلمين الذين جلبهم التنظيم كمدد للمظاهرة للتركيز على تجمعات بشرية كبرى فى المدن الكبيرة تحدث الصدى المطلوب.

وجاء شاب حاملاً جهاز كمبيوتر، قائلاً إنه اغتنمه من مقر الحزب، وقلت له إنه يضم بالتأكيد أسرارًا، وطالبته بألا يكسر كلمة السر الخاصة بالجهاز إلا عند متخصص وطنى حتى لا تضيع المعلومات الموجودة بداخله، وبدا أنه لم يهتم إلا بالحصول على الجهاز، وتذكرت أننا كنا -فى وزارة الاتصالات- طرفًا فى اتفاق

لتوريد أجهزة لابتوب للحزب بأسعار مميزة، ووفرنا لهم خطوط اتصالات شبه مجانية أيضًا، فالحزب كان يعنى الدولة، وقلت إن هذا الجهاز الذى استرده الشاب، من حقه هو أكثر من الحزب، هى بضاعته التى ردت إليه باعتباره من الشعب، وكان العجوز لا يزال يردد أن كل ذلك حرام أخذه.

لقد انخلع قلبى ملتاعًا يومها وأنا أرى الحريق يمتد من مقر الحزب إلى المبنى الكبير المجاور له، والذى يضم المجالس المتخصصة، بعضه يستحق الحرق، والبعض الآخر يجب الحفاظ عليه، وقد عدت إلى مربع مشاعرى المحايدة، ولكنها كانت مبررة هذه المرة، فالحريق يمكن أن يودى بأدلة إدانة، هل يكون من يقوم بالحرق مندسون تابعون للحزب الحاكم؟

أيًّا كان الفاعلون، فابنى لم يكن بينهم، أوقن أنه ليس بينهم، وسمعت أن المتحف المصرى الواقع خلف مبنى الحزب، تتم سرقته، فهرعت نحوه ويقينى أنه هناك يحميه، وبالفعل وجدته ممسكًا بيد المخرج الشهير الذى يحبه، والذى كان بدوره يوجه عدداً من الشباب، مشكلين حائطًا بشريًّا للذود عن المتحف، فاطمأننت، ومضيت مبتعداً ناحية وسط الميدان حينما شاهدت مدرعات الجيش هذه المرة وليس الشرطة وهى تخترق الميدان، يبرز فوقها رأس جندى يمسك براية يشير بها للأمام.

كانت تلك هى اللحظة الوحيدة التى يخرج فيها صوتى، ولكنه خرج مختنقًا كصرخة أخرس، وأخذت ألوح لجنود الجيش تترقرق

الدموع فى عينىّ، وكأنما كنت -مثل كثيرين- أنتظر هذه اللحظة التى ينزل فيها الجيش، لكى نسلم على جنودنا يداً بيد، ونعانقهم فى ود وترحاب، مثلما فعل التوانسة مع الجيش الذى أجبر رئيسه على الهروب، وكنا قبل ذلك بساعتين نسأل بعضنا بعدما هربت كل الشرطة:

- هو الريس هرب ولا لسه؟

وكان بضعة شباب يهتفون وسط الميدان:

- عايزين الجيش يحمينا، الشرطة بتضرب فينا.

ورددتها خلفهم ملوحًا بذراعى، محاولاً استشعار لحظة فخر ولذة نصر.

وكان مكتوبا على اللوحة المعدنية الخلفية للمدرعة: القوات المسلحة.

كانت المدرعات تجىء من ناحية المتحف المصرى متجهة إلى الجبهة الأخرى الموجود عندها مبنى وزارة الداخلية ومجلس الشعب، وكان قصف القنابل والذخيرة قد هدأ على الجبهة الأخرى المقابلة ناحية وزارة الداخلية، فيما يلى مجمع التحرير، ولاحظ الشباب أنه كلما وصلت مدرعة مكتوب عليها القوات المسلحة لتلك الناحية المقابلة، لا يلبث الضرب أن يندلع مرة أخرى، وتكرر تلاحظ ذلك على مدى نصف ساعة وصلت فيها للناحية الأخرى ثلاث مدرعات، ورأيت الشابين -اللذين كانا عند مدخل محطة المترو- يتناديان، وسمعت أحدهما يقول للشباب الذى كان لا يزال يكرر هتافاته المطالبة للجيش بأن يحمينا من الشرطة:

- يا جماعة، فيه كلام إن المدرعات دى بتوصل ذخيرة للداخلية، بعدما خلصوا الذخيرة اللى عندهم، والشباب هناك مش عارفين يدخلوا الوزارة بسبب الضرب اللى بيرجع بقوة تانى كل ما مدرعة تدخل الوزارة، مش هنعدى أى مدرعة من هنا.

من هنا؟ هنا الذى يشير عليه، هو وسط ميدان التحرير، أو بالأحرى الميدان كله، ولوهلة شعرت أنه ورفاقه ليسوا بشراً، لا فى طريقة كلامهم، ولا فى أسلوبهم الواثق، وجىء بجراكن بنزين لا أدرى من أين، تعاونوا على سكبها على الأرض، وسمعت أحدهم يهتف فىّ:

- لو سمحت يا حاج اسحب معايا الحاجز ده.

كان يشير إلى حاجز من تلك الحواجز الحديدية التى يستخدمها المرور عادة لغلق الطريق، وسحبتها معه لا إراديًّا وألقينا بها وسط الميدان، وكذلك فعل آخرون حتى صارت هرمًا من الحواجز، وسط خطوط من البنزين المسكوب على هيئة دائرة، واكتشفت أن مجموعات أخرى فعلت نفس الأمر فى الجهات الأخرى المؤدية إلى وسط الميدان، ولولا أننى كنت جزءاً من تلك المجموعات التى فعلت ذلك لكنت شككت أن فى الأمر سرًّا وتدبيراً عظيمًا يجعلهم يتصرفون بتلقائية أقرب للتنظيم المحكم، وظهرت مدرعة مسرعة تصدى لها الشباب وهم يدارون الحاجز الحديدى، ثم أفسحوا لها الطريق فجأة لتصطدم بالحواجز، وتتعثر قليلاً فأعطت شبابًا آخرين مهلة لإضرام النار فى دائرة البنزين على الأرض، ودارت المدرعة حول

نفسها فيما بدا أن قائدها يحاول إيجاد مخرج من دائرة النار، مما أعطى لشاب مثل الصقر فرصة دقيقة واحدة انقض خلالها على المدرعة وتسلقها بخفة وضرب الجندى الذى يخرج رأسه منها ممسكاً بعلم، ثم حاول جرّه خارجاً منها، ففشل فتناول شعلة نار من رفيق له يقف على الأرض ورمى بها بداخل المدرعة، فاندلعت بها النيران وخرج منا جنديان، أمسك بهما الشباب وفتشوهما فوجدوا أوراقهما تقول إنهما من الحرس الجمهورى، فأخذوا منهما سلاحهما وألقوه فى النيل وتركوهما يهربان بعد أن خلعا ملابسهما.

ويبدو أن الطائرة الهليكوبتر التى لم تكن تكف عن الطيران فوق الميدان منذ دخلناه فى جمعة الغضب، قد أرسلت للقيادات تخبرهم بما جرى للمدرعات المكتوب عليها زوراً القوات المسلحة، هل تكون خديعة، أو وقيعة بيننا وبين جيشنا العظيم؟

مساء جمعة الغضب، كفت المدرعات عن المجىء، لا سيما وأن مداخل الميدان المتقدمة كانت قد أغلقت بإحكام على يدى الشباب، وأحسست أنى مخبول عندما تذكرت صياحى الساذج ترحيباً بالعدو، فى المرة الوحيدة التى هتفت بها منذ اندلاع الثورة.

من ساعتها أصبح الميدان لنا، أقصد لابنى ورفاقه، والشعب من ورائهم، وكان مشهد احتراق مبنى الحزب الوطنى والمبنى العالى المجاور له، جليلاً ومهيباً ودالاً، ظلت أنوار نيرانه تتسرب لنا من بين سحائب الدخان العالقة فى الهواء من أثر القنابل، وكأنها خيوط شمس تتسلل لنا من بين غيوم الشتاء، فاستنار ليل الميدان المظلم

حتى أشرقت اليوم بتباشير الصباح، والشباب لا يكفون عن محاولات اقتحام وزارة الداخلية، وفكرت في الاقتراب منها، وعبرت حديقة الميدان الواقعة أمام مجمع التحرير، ورأيت فتيات يرتدين خمارًا وحجابًا ورجالاً عجائز، لكن الغالب عليهم أنهم كانوا من الشباب، وعندما سمعنا صوت إطلاق رصاص حى باتجاهنا، تراجعت مذعوراً وسط النساء والعجائز وبقى الشباب يتقدمون، والمهم أن ابنى كان هناك آمنًا عند المتحف يحميه.

فى ذلك اليوم -السبت التالى لجمعة الغضب- تمددت على عشب الحديقة الوسطى للميدان، ارتميت مكدوداً، وجلس بجانبى شاب لم يكمل العشرين بعد، يرتدى بنطلون جينز به عدة ثقوب صغيرة، وقلت لنفسى يا لهذا الشباب! يتظاهر بأحدث صيحات الموضة، ولاحظ الشاب نظرتى فقال لى إنها ثقوب من أثر الضرب بالخرطوش، وشهقت فزعًا.. كل هذه الثقوب؟ وكان لون البنطلون قد تحول فى بعض أجزائه للون الأحمر من أثر دماء نزفها الشاب، وقلت:

- ليه هو انت كنت فين؟

- عند وزارة الداخلية.. ولاد الكلب مش عايزين يدخلونا.

وضحكت، وقلت له إنه يجب أن يأخذ استراحة محارب فى حراسة المتحف، فقال لى إنه لا أحد عند المتحف الآن، فقد تكلفت قوات خاصة من الجيش بتأمينه، وانتفضت مرعوبًا على ابنى، وسألته عن ابنى، فنظر لى بدهشة وكأنى مخرف، ونظرت فإذا جموع الشباب تتجه كلها ناحية الشارع الذى تقع فيه وزارة

الداخلية، وخمنت أن ابنى بينهم، فذهبت فى نفس الاتجاه، وكلما أوغلت ازدادت الرؤية صعوبة، وزادت حالات الاختناق، وارتفعت أصوات الرصاص الحى، وهناك كان المشهد أشبه بساحة حرب، جرحى يتسندون على زملائهم، وشهداء أسلموا الروح توًا.

إحساسى هو وحده الذى يمكن أن يقودنى إليه فى تلك المتاهة، لكننى عبثًا حاولت إيجاده، وكنت أساند جريحًا لأخرجه من المكان ناحية مسجد عمر مكرم، حيث المستشفى الميدانى البدائى المقام بالجهود الذاتية، وأعود لأحمل آخر، وكم من شاب جريح مات بين يدى، وهو يلفظ الشهادة ويوصينى بأن أبلغ أهله.

فشلت فى إحصاء أعداد من حملتهم شهداء، ومن تسندوا علىّ جرحى، وشق نور الشمس طريقه، وكان شهيد يخبرنى بأنه ترك طفليه ويوصينى بهما.. يوصينى أنا بهما، لا يعرف أننى أبحث عن ابنى الذى أخشى أن أجده جريحًا.

فى الصباح الباكر رأيت ابنى، يقف عند مدخل الميدان من ناحية السفارة الأمريكية يقيم حواجز، فاطمأننت، ووجدته لاحقًا يساعد فى إقامة منصة ائتلاف شباب الثورة مع رفاقه من مختلف الاتجاهات والمشارب السياسية، وارتفعت الشمس فى السماء فعادت الاتصالات لأجهزة التليفون المحمول، فارتميت نائمًا على العشب داخل إحدى الخيام المنصوبة فى الميدان، تاركًا جهازى المحمول يرن مرارًا، وقلت إنها لا بد وأن تكون زوجتى أو "فاتن"، لا بأس من بعض القلق على لمن يريدنى، أما من تريد ابنها، فلتتصل به على هاتفه المحمول، إن شاء الرد عليها.

(٩)

– هامشى أنا بقى يا حبى.

وانتصبت "فاتن" واقفة تنفض الغبار والعشب الجاف، عن فستانها:

– على بال ما أوصل بيتنا يكون الليل دخل.

ومشيت بجانبها صامتًا ناحية ميدان "عبد المنعم رياض" وهى لا تكف عن الحديث فى أشياء تافهة، لا ألقى لها بالاً، لا تناسب مطلقًا تلك اللحظة الجليلة التى ننتظر فيها خبرًا سارًا بتنحى الرئيس، كما تقول الشائعات، ومشينا بمحاذاة المتحف المصرى، فأمسكت ذراعها وأوقفتها:

– هنا بقى، ابنى صد آلاف من بلطجية النظام.

ألقت إلىّ "فاتن" بنظرة من تلك التى لا تحمل أى مغزى، فأضفت:

- أيوه، عمل من كرتونة مقطوعة خوذة لبسها على راسه، ووقف طول النهار والليل يحدف عليهم طوب وأجبرهم على التراجع، لغاية ما اتحدفت عليه طوبة جامدة وقّعت الكرتونة وشقت راسه، راح خيّط الجرح ورجع تاني يضرب عليهم طوب.

وانسال في ذهني بيت نزار قباني الجميل الجليل:

بهروا الدنيا وما في يدهم إلا الحجارة

وأضاءوا كالقناديل

وجاءوا كالبشارة.

لكنها كانت تغتال "نزار" قائلة:

- أيوه شفتهم في التليفزيون بيضربوا بعض بالطوب، وقلت يا رب يصالحهم على بعض، دول مصريين ودول مصريين.. إلا انت كنت في أنهي ناحية يا حبيبي؟

- طبعا في الناحية اللى فيها ابني.

ولم أذكر لها أنني -كما فعلت في جمعة الغضب- لم أجرؤ على التقدم إلا متأخراً، عندما رأيت الدم ينساب على وجهه متفجراً من رأسه كنافورة، تماماً كما ملأني الغضب من قبل حينما رأيت عينه تنزف، وتسنّد عليّ حتى أوصلته المستشفى الميداني عند مسجد "عمر مكرم"، ولم أخبرها بأني حاولت منعه من العودة للجبهة وفشلت كالعادة فذهبت معه إلى مقدمة الاشتباكات، وألقيت بحجرين أحسست بعدهما أني كتفي يكاد ينخلع، فنظرت معتذراً لتمثال الشهيد "عبد المنعم رياض" فبدا معاتباً، وقد مات في سن

أكبر من سنى على جبهة القتال، وأذكر أنى قرأت أن الضابط المرافق له فى الخندق قال له :

- أنا انصبت يا فندم.

فقال له الشهيد :

- وأنا كمان منصاب.

وصمت الضابط دقائق ثم رجع يقول : أنا بانزف يا فندم.

فلم يرد الشهيد، فقد سكن جسده، لكنه انتصب بعدها بنحو ثلاثين عاماً فى الميدان لواء صخريًّا صلبًا ينظر إلينا ونحن نقاوم على مدى يومين، نقاوم أناسًا ليسوا منا، ليسوا من مصر، بالتأكيد، ضربونا يومها لأننا نطالب لهم بحقوقهم وحقوقنا فى حياة حرة كريمة، وكان الشهيد ينظر ويومئ إلينا، مثله لو نطق فسيقول إننا نحن الحق وهو يشير ناحيتنا.

لم أجد قدرة على رمى مزيد من الأحجار، فاكتفيت بحمل أجولة الأحجار للرماة، وكنت أخلع بلاط الرصيف وألقيه على الأرض بعنف حتى يتفتت إلى عدة قطع، ثم أقوم بتعبئته فى جوال وأهرع به إلى ابنى ورفاقه، وتذكرت شائعات تقول إن ذلك البلاط يورده للدولة مصنع مملوك لشريك ابن الرئيس، فيزداد عنفى فى إلقائه على الأرض ليتفتت بقوة.

وقطعت "فاتن" استرسالى فى خواطرى وذكرياتى القريبة عندما مدت يدها لتسلم علىّ مودعة إياى، وراقبتها حتى اتجهت إلى حيث يقف الميكروباص، وأنا أبادل النظر لها ولتمثال الشهيد، ودعتها

دون حتى أن أسألها أو تسألنى عن موعد لقائنا الجديد، لم أهتم ولم تهتم حتى بالسؤال عن الوقت الذى سنستكمل فيه إجراءات زواجنا.. هل انتهت علاقتنا بنصف اتصال جسدى؟

وعدت أمشى فى الميدان الذى تروح فيه وتجىء نفس الوجوه التى اعتدتها تتمشى باطمئنان فى الميدان، وإحساس يخالجنى بأن شيئًا ما -جللا- سيقع اليوم، فقد علمت توًّا أن المجلس العسكرى للقوات المسلحة قد انعقد بكامل هيئته وبدون رئيسه -رئيس الجمهورية- الذى تحاصره جموع المتظاهرين الآن عند القصر الجمهورى منذ ليلة أمس، وعلمنا أن الدبابات استدارت بفوهات مدافعها ناحية جدران القصر الجمهورى بعدما كانت توجهها ناحية الشارع، وكان لذلك دلالة كبرى كما كان للانعقاد مغزى كبير.. هل يعنى ذلك أن الانعتاق قريب؟

ووجدت نفسى مجددًا وسط ابنى ورفاقه، فى نفس المنطقة بالميدان التى كان يمشى عليها العجوز بدراجته منذ سنوات، فبدأت ألف حول نفسى راقصًا وهاتفًا:

- قول ولا تخش القول قول.. الرئيس هو المخبول.

ولم يرددها ورائى أحد من الشباب الثائرين، وبدوت مثل كائن خرافى من عصور سحيقة، يتكلم لغة لا يفهمونها، تمليت فى أعينهم المتلألئة بألق سماوى، وكانت من بينهم عين ابنى الوحيد- الوحيدة، التى بقيت له، وقد كان له قبل جمعة الغضب الماضية اثنتان، وليس لى أمس واليوم وغدًا غيره، ولمحت فى أعينهم نظرة

ساحرة، وعلى أفواههم ابتسامة مكتومة ساخرة.. شفقة بالغة عليّ
رقّت في عين ابني الذى خلع كوفيته الفلسطينية ونزل من فوق سور
الميدان إلى جوارى تماماً وكأنما يغطيني ليدارى عارى ويراقصنى
هاتفاً:

- كلموه عبرى.. مابيفهمشى عربى.

- ارحل يعنى امشى.. ياللى ما بتفهمشى.

وكانت أول مرة تقال، وخطر لى أنها موجهة لى دون قصد من
ابنى، فضحك الجميع ورددوها وراءه بانتشاء، وكنت أدور حول
ابنى وألمح فى عينه الفائرة بالفرح والفخار نظرة عتاب ولوم
واستقلال عنى واستقلال بى.. عينه الواحدة، عينه الباقية، ترى
الآتى أفضل من عينيّ اللتين لم أدرك بهما شيئاً ذا قيمة طوال عمرى
المديد، لم أر بهما سوى اليأس المطبق، وقلت إننى لا بد وأن أرحل،
حسناً، لا بد أن أرحل مع الرئيس، فأنا من بقايا عصره الكسير.
حسناً، لا بد أن ألملم انكساراتى وهتافاتى القديمة وإحباطاتى وأرحل
معه.. كفاية.

كنت أتجه ناحية النيل خارجاً من الميدان، متخذاً قرار الاغتسال
فيه، وقد أطبق الظلام على كل الأرجاء، وارتج ميدان التحرير فجأة
بالهتافات والتكبيرات، فتوقفت وحاولت أن أسأل كثيرين
يتقافزون حولى ويتراقصون ويسجدون على الأرض، ويتعانقون،
وبعد أسئلة كثيرة قال لى أحدهم إن الرئيس تخلى عن الحكم،
ووجدتنى فى منطقة اللاشعور، واللافعل، فلم أهتف أيضاً ولم

أسجد ولم أكبّر، فقط نظرت للسماء الصافية، ثم أعدت النظر فى الوجوه التى تملأ الميدان، وبين السماء والميدان، انطلقت ألعاب نارية بهية بهيجة مبهجة كان وميضها ينعكس متلألئًا على الوجوه.

كل ما قررته واستطعت فعله أنى استمررت ماشيًا ناحية النيل مقررًا الاغتسال فى مياهه، رغم أن ظروفًا استجدت على اتخاذى قرارى ذاك، لكن ذهنى كان مبرمجًا غير قادر على التفكير فى أكثر من اتجاه وفى أكثر من قرار، وكأنما قد هده التعب وأرهقه التفكير، ومضيت أحث الخطى ناحية النيل، وكنت الوحيد الخارج من الميدان، بينما يتدفق القادمون بالآلاف جماعات وأفرادًا، راكبين سياراتهم وراجلين، يهتفون ويكبرون ويتعانقون، وأنا الخارج الوحيد، قاصدًا النيل، وعند أسد قصر النيل الأيمن -بالنسبة إلىّ- انثنيت وهبطت ناحية بقعة مظلمة من الشاطئ، وربطت بضع مزق من القماش المتناثرة على الشاطئ، وصنعت منها حبلاً ربطت طرفه فى شجيرة قريبة، كانت ومضات الألعاب النارية تتراقص احتفالاً فوق قمم الأشجار، وخلعت ملابسى كلها، ونزلت النيل متدثرًا بالليل، وممسكًا بالطرف الآخر من القماش، الماء شديد البرودة لكننى قادر على احتماله، وسكنت الدنيا وسكتت أصوات الهتافات والتكبيرات وانفجارات الألعاب النارية، عندما غاص رأسى تمامًا فى المياه، لم أنزل يومًا فى بحر ولا حتى حمام سباحة، كنت أخشى العوم وغير راغب فى تعلمه، وكل علاقتى بمياه البحار والأنهار، وحتى حمامات السباحة، هى الاستمتاع بمرآها من بعيد.

تعود الأصوات أقوى مما كانت ويزداد ضجيجها كلما ارتفع رأسى عن الماء وخرّت قطراته من أذنى، ورأيت من بين بقايا قطرات المياه التى تغطى عينىّ كوبرى قصر النيل يحمل على ظهره جموعًا بلا نهاية تترى ناحية الميدان، وأنوارًا تنفجر فى السماء مثل قمم نخل بألوان شتى رائعة، الأعداد تتزايد والأصوات تتعالى، ثم صمت كل شىء مرة أخرى، عندما غصت مجددًا، ثم انفجرت الأصوات عندما أخرجت رأسى، وراقت لى اللعبة، رغم أنى أعلم أنى تطهرت من أول غطسة، وتبددت مخاوفى من انقطاع الحبل الهين، واختفى خوفى على ابنى، وزال رعبى من الماء، وكررتها: مستمتعًا بسكون العالم تحت الماء، ثم انفجاره بالهتافات والتكبيرات ومرأى الجموع فوقه، وكأنما تولد فجأة وتختفى فجأة، أغطس وأقب، تحرر.. تحرر، أغطس فتأتينى زوجتى وأبوها و"فاتن" و"منعم" و"منيب" وزوج ابنة عمتى ضابط أمن الدولة والوزير وصاحب شركة المقاولات، وأقب فأسمع هدير الجموع ومرآهم الزاحف نحو التحرير وانفجار الأضواء فى السماء وطلقات مسدس الألعاب النارية، وصوت ابنى يرن فى أذنى وكأنما يأتينى صداه:

- الشعب.. خلاص.. أسقط النظام.

وتمددت على ظهرى فوق الماء مستسلمًا للموج ومستكينًا لوقع دفقاته وهى تضرب جنباتى، وطفا جسدى وارتفعت قدماى وضحكت وأنا أمسك بالحبل بيدى الممدودتين فى اتجاه رأسى، ونظرت للسماء، وخُيّل إلى أننى أمضى بعيدًا عن الشاطئ، والتفتّ

فرأيتنى لا أزال فى موضعى، لم أبرح، وكأننى ما زلت فى المنطقة المحايدة بين الشك واليقين، بين الفسق والدين، بين النجاسة والطهر، بين الإقدام والإعراض، بين الوطنية والخيانة، بين الوفاء والانفلات، بينى وبين ابنى، فتطلعت للسماء بعينين وجلتين خجلتين، وهى تتوضأ بنور البهجة القادمة من كل صوب، وقلت إنه من المناسب الآن الرحيل إلى السماء، فلا مكان لمثلى على الأرض الجديدة، متمنياً لعين ابنى الباقية، البقاء والرؤية الثاقبة.

(تمت)

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.

* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .

* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

إصدارات

سلسلة حروف

1- اليوم الذى.. بدأ .... عطية معبد

2- أو ما يشبه العشق........................ فدوى حسن

3- ناسى حاجة........................ السعيد المصرى

4- حكايات من بلاد البمبوزيا................ محمود سيف الدين

5- أعمى بيقرا كتابه.. بتصرف............... محمود الحلوانى

6- كتاب السطور الأربعة..................... حمدى الجزار

7- حبيبتى مروة........................... نصر عبد الرحمن

8- مسامرة جيدة لأرق طويل.................. عصام الزهيرى

9- نظرة تانية للملامح ع الخريطة .... محمد ربيع محمد

10- فى المستقبل القريب جداً .... هشام محمود

11- للموت سُمْعَةٌ سيّئةٌ .... سالم أبو شبانة

12- قريتنا تصنع أسطورة .... محمود أبو راجح

13- امرأة فى المنام .... محمود أبو عيشة

14- بنات قبْلى .... ماهرمهران

15- خذ كتابى بيمينك .... سوزان عبد العال

16- لوزة .... عبد الستار حتيتة

شركة الأمل للطباعة والنشر

(مورافيتلى سابقاً)

ت: 23904096 - 23952496

يعتمد كاتب هذه الرواية على لغة تتناسب تمامًا وعنوانها البسيط الذي يوحي لقارئه منذ اللحظة الأولى بمدلول لا يمكن أن يكون هو المحور الأساسي لهذه الرواية، فالرواية تمتلك من الأحداث بما يوقفنا أمام مرآة الدهشة لنستشرف ما يمكن أن يوضع في الأفق البعيد لكاتب يجيد المراوغة والسعي عكس اتجاه التوقع، هذا فضلا عن تراكيبه الممزوجة بحكمة التجريب وبراعة التناول والقدرة الفائقة على الحكي المشوّق.





الثمن : جنيهان

www.gocp.gov.eg